محمد المنصور الشقحاء

الزهـــور الصفـــراء

(حكايات وقصص قصيرة)

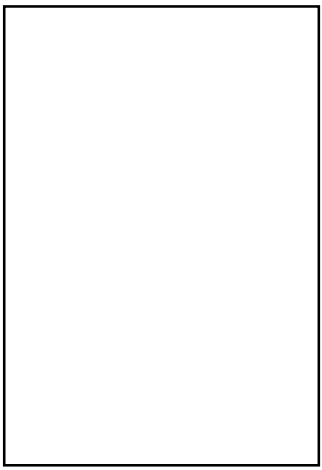

نادي الطائف الأدبي

الزهور الصفراء

محمد المنصور الشقحاء

الزهور الصفراء

(حكايات وقصص قصيرة)

نادي الطائف الأدبي

4

ح نادي الطائف الأدبي 1431
فهرست مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الشقحاء ، منصور محمد
الزهور الصفراء. / منصور محمد الشقحاء .– الطائف ، 1431
180 ص ؛ 14 في 21 سم
ردمك: 978 - 9960 – 620- 68 – 8
1 – القصص القصيرة العربية – السعودية أ – العنوان
ديوي 813،019531
رقم الايداع: 1431 / 1431
ردمك: 978 – 9960 – 620 – 68 – 8
c_1431 – 2010م الطبعة الثانية
دار المفردات للنشر والتوزيع، الرياض
المملكة العربية السعودية
ص . ب 703 / الرمز البريدي: 11421
هاتف: 4708529 ، فاكس 4708545
الموقع الالكتروني:www.almufradat.com
البريد الالكتروني: info@almufradat.com
لوحة الغلاف: من تصميم المبدع ناصر الموسى
الناشر: نادي الطائف الأدبي
الطبعة الثانية – حقوق الطبع محفوظة

في الـــبدء

يضم هذا الإصدار قصص:

1 ـ مجموعة (الزهور الصفراء) مطبوعات نادي الطائف الأدبي
عام 1404 هـ / 1984م

2 ـ مجموعة (قالت أنها قادمة) التنفيذ الطباعي الدار السعودية للنشر والتوزيع
بجده؛ عام 1407هـ / 1987م

3 ـ مجموعة (الغريب) منشورات دار مجلة الثقافة بدمشق
عام 1408هـ / 1988م

البحث عن بقية

* لا يعرف الكتابة. وماذا ترمز إليه الحروف. كل ما يريده من الحياة أن يظل الرخاء. وأن يستمر الفرح مزروعاً في الأحداق. متحدثاً عن النعمة التي افتقدها في طفولته وصباه.

والقسوة في المعاملة التي كان يتلقاها. من جماعته بعد أن أكلت الوحوش والده ذات شتاء حين تاه في الشعاب والأودية. لم يستطع الكشافة المرسلون من القبيلة تتبع آثاره. واسترجاع (ألبهم) منه بعد أن همس صوت مجهول بأن (رافع) قرر سرقة أغنام جماعته والهجرة إلى الشرق حيث يستطيع. بما يحصل عليه من قيمتها شراء أرض. وبناء مقهى. في إحدى المدن التي يتوافد إليها العمال بحثاً عن عمل لدى شركة الزيت الذي نبع مؤخراً في تلك الناحية من البلاد.

* * *

* لم يستطيع الكشافة. الوصول إلى نهاية الأثـــر حيـــث أخفت الرياح. مواقع الأقدام. والعثور على جزء من الأغنام.

* * *

* إنه ابن رافع. الذي أكلته السباع. كل قتال يحدث بين الأطفال. هو مصدره حتى وعندما شب وتجاوز مرحلة الطفولـــة؛ كان أيضاً مصدر المتاعب والمشاكل رغم طيبة والدته التي تزوجت وأنجبت غيره.

إنما كان الولد الآبق الذي يرتاح للتجـــوال في الأوديـــة باحثاً عن أي أثر لوالده.

* * *

* تناست القبيلة (رافع) وإن كان يرد ذكره بـــين لحظـــة وأخرى في مجالس السمار وقد ازورَّ الجميع عن ابن رافع.

* * *

* بيّت (ناجم) أمرا أخذت الهواجس تشغل باله فلم يعـــد يهتم بالتجوال للبحث عن بقايا آثار والده. ولم يعد يحرص علـــى ملاقاة (جمانه) عند (القليب) أو في (الخلا) حيث تقوم بجمع الحطب والأعشاب ورعي الماشية.

* * *

* ذات ليلة والجميع يتأهبون للتوجه إلى مجلس الشيخ إذ

بناجم يتصدر المجلس في ملابس نظيفة جديدة. و(بشت) لا يستطيع غير عدد قليل توفير ثمنه.

ارتسمت الدهشة فوق الشفاه. لعدم مبالاته وحرصه على النهوض من مكانه لمن هو أكبر سناً أو أفضل مكانة. وبدأ حفل السمر بالحديث عن الصحة. ثم إنشاد الأشعار. وعندما استعد عازف الربابة لتقديم وصلته تنحنح (ناجم) ثم خلع (بشته) من على أكتافه ونهض تاركاً (البشت) مكانه وغادر المجلس.

* * *

* ترقب الجميع عودته إنما مر الوقت. وانفض السامر قبل عودته. وبقي البشت... غادر القرية دون رجعة. لم يأخذ معه مؤنا إنما اكتفى بإرشاد النجوم. حتى وصل إلى مركز يعتبر محطة لقوافل العربات.. والمسافرين.

* * *

* افتقدت الجماعة (ناجم) الذي وصل إلى الشرق، بعد أشهر أخذ يبحث فيها عن عمل. لم يكن معه. ما يدل على الطريق الذي يجب أن يتخذه.

إنما أقدم على التوجه مع العمال. من خلال الحديث الذي التقطه في الطريق. واستخرج بطاقة عمل من الشركة. حيث أخذ يتنقل من موقع إلى موقع.

* * *

* وجدها كانت (جمانة) بعد أن وخط الشيب فوده.. تزوجها على ذكرى (جمانة) الصبي. اعترض مخيم والدها طريق أعمال الشركة.. وقرر الإقامة في المخيم والتخلي عن عمله في الشركة.

افتتح مقهى على الطريق الجديدة. واستعان بأطفاله الثلاثة. الذين لم يتجاوزوا مرحلة الطفولة في تأمين طلبات الزبائن..

ـــ هل يدرس أبناؤك..؟

ـــ ماذا ..؟

لا يدري ماذا؟ كان يرد على أسئلة موظف الإحصاء الذي زاره فجأة في المقهى وأخذ منه معلومات وافرة عن حياته وأسرته.

* * *

* بيّت أمراً. وأخذ يتطلع في أبنائه الثلاثة بعد أن غادره موظف الإحصاء وهم يقومون بتأمين الطلبات. وقبيل غروب الشمس باع المقهى بما يحوي.

* * *

* غادر مع أسرته الموقع إلى الشرق مرة أخرى لقد أصبح لديه نقود الآن. بحث عن مسكن صغير في أطراف المدينة. ثم التحق بإحدى الدوائر الحكومية على بند العمال وتقدم بطلب التحاق أطفاله بأقرب مدرسة. وطالبه مديرها بشهادات ميلادهم. أو

صورة من حفيظة نفوسه إذا كانوا مضمومين فيها. لم يعرف مـــاذا يعني ذلك سوى أن العراقيل وقفت أمام وجهه.

كان حريصاً على تسجيل أبنائه بالمدارس. فقـــرر أخـــذ أوراق توصية من إدارته. جهز ثلاثة ملفات لكـــل صـــبي ملـــف استطاع بموجب هذه الملفات ضمهم في حفيظة نفوسه وتسجيلهم في المدارس.

* * *

* تذكر كل هذا. وهو يتجه بعربة أكبر أنجاله إلى القريـــة التي غادرها. ذات ليلة بعد أن تخلى عن (بشته). كانت اللوحـــات الإرشادية تملأ الطريق المعبد الذي امتد حديثاً.

* * *

* أخذ يسأل عن كل سهم يخترق لوحة إرشادية، وبعـــد عدة كيلو مترات رملية وجدها أرضاً بلقعاً.. خالية من الـــسكان. وآثار بيوت طينية مهدمة تراكم الرمل فيها وبقايا آثار قوم.. يتربع في الساحات.. انداحت دمعة كبيرة من مقلتيه وتوارى عن وجـــه ابنه الذي ارتسمت فوقه أكثر من علامة استفهام.. ثم توجـــه إلى العربة التي عادت إلى الطريق المعبدة مواصـــلة طريقهـــا في رحلـــة عمل. فضل أن يشارك ابنه فيها للترويح عن النفس بعد أن أحيـــل على التقاعد وفقد (جمانة) وغادر أبناؤه الباقون الدار.

* * * *

في انتظار الحافلة

أعي أنني عمل مصادر. حتى في عيون أبنائي. حيث استباحت الهواجس واقعي فغدت ذرات يصعب متابعتها تنسكب كل صباح مع أشعة الشمس. التي تلج الدور كل صباح عبر فتحات وهمية.

* * *

انهم يقتلون مرحلة الصحو التي تنتابني أحياناً فأخذة في الهذر حتى يصمت من حولي رغم المقاطعات الواضحة التي ترتسم فوق الشفاه. حروف وكلمات. ثم جمل اعتراضية غير واعية تنتهي بابتسامة صغيرة باهتة. ذات ألوان صفراء متفاوتة في الحدة.

* * *

يقال هناك ناحية من الوطن يقتلون فيه الجياد الأصيلة والكلاب الضالة. حتى القطط لم تسلم من حجارة الأطفال. إذ أن كل ذات في تلك الناحية. مشوه أو مبتور أحد الأطراف. لذا لم

يعترض أحد على وجود دكاكين الأطراف الصناعية.

* * *

استقريتِ في أعماق الندى زهـــرة بريـــة. ذات أشـــواك لطخها الدم. تنمو.. تنمو.. رغم الجفـــاف والجـــدب. وهجـــرت المزارعين في شاحنات النقل. حيث تم غرس مـــداخن ذات دخـــان أبيض لف أسطح المنازل حجب الرؤيا.

* * *

لم أستطع اللحاق بالحافلة التي كنت أحد محتلي مقاعدها ذات مساء كانت الساعة تشير إلى الخامسة. في كل مـــرة كنـــت أرحل قبل موعدنا بثلاثة أيام حتى أصل في الموعد المحدد. إنما هـــذا اليوم كانت ساعته خربة. أما بقية الساعات فقد كنت أشـــك في صدقها. لذا فات الموعد وعندما سألت بائع القسائم عنك قـــال.. لقد رحلت.

* * *

أجل عرف أوصافك قبل أن أسترسل في شرح معانـــاتي. لقد كنت الرجل الذي يحمل رقم مئة. في قائمة السائلين. الـــذين يلطخ الدم أناملهم لقد كنت زهرة برية شرسة.

* * *

ارتفع صوتا أجش عبر مكبرات صالة الانتظار معلناً عـــن موعد إقلاع ثلاث رحلات إضافية. بجانب الرحلة الرسمية.

* * *

كانت الأطراف الصناعية أكبر عدداً وكماً من الزحام الذي أخذ يكون طوابير من الأعمال الباحثة عن مقاعد شاغرة.

* * *

من المفروض حسب رقم البطاقة التي أحملها في يدي أن أجلس في مقعد بجانب النافذة. وفي المكان المخصص للأشخاص الذين لا يدخنون ومع ذلك. وجدتك تحتلين مقعدي.

* * *

الساعة الآن التاسعة تأجلت الرحلة ثلاث ساعات بسبب عطل في جهاز الحاسب الآلي إذ أن المبلغ المدون على شاشة الكمبيوتر غير حصيلة الصندوق. وأقل بنسبة كبيرة من الأعمال التي حصلت على تذاكر. ومن ثم احتلت المقاعد الفارغة.

أنت. وكنت المجيب الأول لا أدري لماذا أجبت رغم أن عيون السائل الذي يقف على باب الحافلة تتأمل الفراغ. ترصد السحب التي أخذت تملأ السماء.

وأخذت أبحث عن تذكرتي أو بقية التذكرة التي سلمني إياها معاون القائد في جيوبي. نثرت حصيلتي من الأوراق والنقود فوق المقعد وعبثت بحقيبة الملابس. فلم أعثر على التذكرة.. وهنا طلب مني الترجل. وأفسح لي الطريق للعودة إلى صالة الانتظار.

* * *

أقلعت الحافلات الأربع فارغات هذه المرة أنهم لا يريدون تأخير الرحلة أكثر. فالوقت من ذهب.

* * *

عدنا إلى طابور الانتظار أمام شباك التذاكر للبحث في قائمة الأسماء عن اسم مدون. إذ أن من يجد اسمه يعود للصالة ومن لا يجد اسمه يقطع تذكرة جديدة.

وصلت أمام الموظف. تأملني قليلاً. ثم ذكرني بسؤالي عنك وأشار إلى اسم تحته خط أحمر..

ـ أليست هي ..

تأملت الاسم. تذكرت أنني لا أعرف اسمك. هززت رأسي نافياً.

ـ هل معك أطراف صناعية ..

ضحك قبل أن أجيب. كيف يكون لي أطراف صناعية ويدي اليمنى فوق الطاولة تحمل الأوراق النقدية والأخرى تحمل حقيبة الملابس. ثم أنني أرتدي سروال رياضة قصير وفانلة صيفية.

* * *

تسلم البطاقة هذه المرة لم تكن تحمل رقم المقعد أو المكان المخصص. وتلفت حولي. كانت الصالة فارغة. تمددت فوق أحد المقاعد. متوسداً حقيبة الملابس.

* * * *

أهازيج ميلاد جديدة

تتناثر الأفكار. تنهال الرؤى باحثة بقسوة عن لحظة حب. هي إيمان راسخ لموطن عاثت فوق ثراه أيام الطفولـــة والـــصبا. في سذاجة مبنية على وهم كبير هو خليط من الخوف والطيبة.

* * *

كان عليه أن يستكين. فهو ذات مطيعة لينة تقـــول ـــ نعـــم ـــ قبل أن يصدر إليها الأمر.

* * *

الربيع الثامن عشر أطل هادرا. بدون مقدمات. ومع هذه الإطلالة حلت الصدمة. التي أعادت المعايير إلى لولبها. لتنـــصهر في هاجس من الرفض. أكد معنى أحلام أخذت تحيط بواقعة. مهـــددة بنهاية بشعة.

* * *

الرحيل كان هاجساً جديداً. رغم الخـــوف. وأصـــرت الجدة العجوز مرافقته في رحلة الغربة. حيث يبحث الجميـــع عـــن الذهب.

* * *

الطريق طويل وشاق أخذت العجوز معه تبكي. صـــوتها يصله منهداً يعلن بؤس الأيام. وشقاء الطريق. الذي أخذت ترصعه عيون مشاركيه الطريق فأخذت تقدم لجدته يد المساعدة. وقد أقام الرفض متاريسه في أعماقه. من خلال عدم إدراك.. بأن هناك شيئاً رهيباً قادما.. فأخذ يلتصق بجدته أكثر.

* * *

الشوارع كما هي. رملية تنتـــشر في جوانبـــها الأغنـــام السائبة والدجاج والبقر والقطط والكلاب في خليط عجيب يعلن تقبل الإنسان لكل العوامل. وإمكانية تهجينـــه للحيـــاة في كـــل الظروف.

* * *

الصراخ يملأ الشوارع. والجديد الذي كون خطـــاً أخـــر مواز لخطوط الرفض التي أخذت في الاضمحلال رغبة الحياة الـــتي هي بدورها دافع للبحث عن عمل. انهـــم.. يـــذبحون الأبقـــار في الشوارع ويلطخون الجدران بالبقايا. بينما نادل المقهى. ذو المقاعد الشريطية والجدران المتهرئة يصيح بصوت عال. معلناً تلبيته لتقديم

طلبات المرتادين في إحدى يديه إبريق للـــشاي والأخـــرى تحمـــل شيشة أخذ الشرر يتطاير من رأسها.

* * *

الأيام في عنفوانها. وفاطمة التكرونيه التي تعمـــل في دار مخدومه أخذت تهتم به تقوم بزيارته في الدكان حيث يعمل وتهـــتم بجدته كثيراً بينما تبحث في عينيه عن الرضا.

* * *

ثارت ثائرة الشارع. أخذ الهرج يرتفع إلى عنان الـــسماء حيث تم العثور على قتيل مجهول الهوية في إحدى الدور الخربة التي يأوي إليها الغرباء أثناء الليل بحثاً عن الراحة.

* * *

تكون خيط آخر. لماذا يموت الإنسان. لقد شاهد المـــوت إنما بين جنيات الأهل حيث يكون البكاء. ورش الطريـــق بالمـــاء. وتكوم الناس لمواساة أهل الميت في صمت ودموع تنـــداح فـــوق الخدود حارة تحرق الأنامل بصدقها.

* * *

التوى طريق حياته. أصبحت المخارج مسدودة. وهاجس من الرعب يطوق خطواته بطوق الترقب. أخذ يتلفت حوله كثيراً. يسارع بين آن وأخرى إلى الدار حيث تقبع جدته وتقوم بـــصناعة المراوح اليدوية و«الطواقي» المخرقة.

* * *

لاحظت الجدة ذلك. فأخذت تقلب الأفكار. حتى وصلت إلى مرحلة الشطط فتوقفت عن مواصلة عملها.

* * *

الطريق الطويل الذي أخذت العجوز معه تبكي. أخذ يتلوى أمام عربة النقل التي حوتهم في صندوقها. بينما الحديث بين الاثنين لم ينقطع منذ أن غادرت العربة موقف الشحن.

* * *

أدلهم الظلام. اختفى الطريق. وخيم الوسن على الجميع فعلا الشخير كما نقيق الضفادع.

* * *

وضع رأسه فوق فخذ جدته التي أخذت تداعب شعره. كان الارتياح يخيم بداخله راسما صوراً جميلة لمرحلة مقبلة. فأغمض مقلتيه عنوة حتى لا تهرب مرحلة الصحو في داخله.

* * *

لم يكن هناك أحد يبكي. فالساعة تشير إلى الحادية عشرة ليلا. الظلام دامس يخيم على المكان لولا ضوء كشافات تشتعل بالبطارية أحضرها رجال السير لانتشال جثث الموتى. وإعانة رجال الإسعاف في مهمتهم لم يكن هناك أحد يبكي. فقد خيم الصمت.

* * * *

هروب

استافت الرؤيا أحداقاً غارقة في الدم. تلتهم آجر الجدران وتلعق في نهم. مراشف حياة.. أخذت تعج بها الشوارع الترابية.

الوقوف على الأرصفة في ذلك الزمن المندس في دهاليز الحياة؛ وصمة بالنسبة لحسناء يطل ضوء وجهها. من وراء حجاب شفاف.. تنتظر حافلة العمل.

إنهم يحرقون ريش الطيور في النار. حيث يتم دفن العصافير الصغيرة في الجمر. لتعبق رائحة الشواء في الوادي. حيث يرتاح للجلوس مع أصفياء السعد. في مرحلة هروب من الواقع المؤلم الذي انداح قلقاً في غياهب الوجود.

ـــ أنت..

ـــ أنا..

ـــ وهل .. هناك غيرنا..؟

لم يكن هناك سواهم.. حديثها عابق بالروائح والأمـــاني.. بينما أخذ يبحث في الوجوه التي خلقها عقله الباطن عـــن شـــبيه. ليتذكر هاجسا في أعماقه يقول ذات يوم التقي (ســـهام) تعبـــث بضفائرها تبتسم في وجه المارة. تقذف الحجارة في جميع الاتجاهات لتخلق الشغب في شارع الحي الرملي تـــصطاد زجـــاج النوافـــذ والعربات المارة تزرع الخوف في العيون. يهابها الأطفال، أما هـــو فقد كان فتاها الذي تختفي معه عن العيون. حتى اختفت فجأة.

كل شيء فيها لا يذكره. بما هو فيه. فحديث الـــروائح والأماني. نبع جديد يحف به سياجا من الزهور المهجنة..

ـــ أنت..

ـــ نعم.. أنني أستطيع.. مواصلة الطريق وزرع الطريـــق. الذي أصبح الآن مزفتا. بزجاج المشروبات الفارغة لتمر من فوقها دواليب العربات.

ومن ثم تحدث أصوات مفزعة تربك الجميع.

ـــ ماذا ..

ـــ لا شيء..

الاندهاش المزروع في (ماذا) بركان أخذ يقـــذف حممـــه فوق الأشجار لتحرق الجميع في دوامة أعاصير ثارت فجـــأة غـــير متباينة الجهات تجتاح كل شيء مخلفة الرماد فوق الأرض..

الرماد. منتشر في الأنحاء يزكم الأنوف. يلطخ الأطـــراف في غاية لا يدرك الجميع أنها النهاية.

توقفت عربة أجرة أمام الاثنين فاندسا في المقعد الخلفي لم يحاول أن يسبقها إلى الدخول. ولم تحاول دفعه إلى الداخل قبلها.

تحركت العربة. لم ينبس السائق بكلمـــة. كأنـــه يعـــرف الوجهة التي يقصدانها. وفجأة توقف ثم التفـــت إلى الخلـــف فـــإذا بالمقعد خال وأوراق بيضاء متناثرة فوقه. تحرك قليلاً من موقفه حتى وجد مكاناً أميناً.

ترجل من العربة.. فتح الباب الخلفـــي.. أخـــذ يجمـــع الأوراق السطور في بعضها غير مرئية والأخرى بيضاء. كومها بين يديه ثم أغلق الباب وتلفت حوله. ثم وضعها فوق الرصيف بهدوء.

مرت إحدى الحافلات التي تحمل شعار إحدى المؤسسات العامة. وقد احتل مقاعدها مجموعة من الموظفين والموظفات أخذت أصواتهم الخافتة تنتشر في الفضاء.

أنهم يغرقون المقل في الكحل الأسود لتبدو مستديرة تسبي عيون الناظرين كما يجب أن يكون لها محور ارتكاز. وبداية انطلاق لترسم خطوطاً عرجاء محدودبة فوق الزفت. تقشع ما سبقها مـــن رسوم تسابق أصحابها على إلقاء أجسادهم أمام العربـــات المارقـــة ليرسم الدم المتطاير من الشرايين صوراً صادقة لواقع مؤلم.

ـــ أنت.

وتلفتت حولها (كان يقف هنا) همست بذلك لرفيقتـــها التي وقفت في التو إلى جوارها في انتظار الحافلة.

* * * *

الزهور الصفراء

[1]

ارتسمت ابتسامة صغيرة في المكان وأخـــذت الزهـــور الصفراء تهتز في خيلاء معربة عن النشوة القادمة مـــن الـــشمال. حيث أخذت الثلوج تذوب لتجري بين الصخور في طريقها الأزلي نحو النهر الذي تحف به المجمعات السكانية. الـــتي لم تعـــد تبـــالي بالفيضان. إذ أصبح موسم خير تتلألأ فيه الثريات معلنة عن مقدم موسم الزواج.

[2]

(أزاد) تتجول في غرفتها تقلب الأفكار. فلم تسمع النقر الخفيف الذي استمر دون هوادة على باب الغرفـــة. اتجهـــت إلى الباب لتفاجأ بشقيقها الصغير وبين يديه زهرة صفراء تناثرت بعض

أجزائها بين قدميه. جلست القرفصاء وأخـــذت تناغيـــه تحدثـــه بلهجته. فغرز بقايا الزهرة في شعرها. ثم أخذ بيدها واتجها إلى غرفة الجلوس. حيث بدأ التلفاز يبث حلقة جديدة من المسلسل العـــربي الذي تتابعه وتحرص عليه. حتى أنها كانت تكلف الآخرين بتسجيل الحلقة التي لا تتمكن من مشاهدتها (بالفيـــديو) حـــتى لا تفوتهـــا الأحداث.

[3]

كانت الزهور الصفراء تملأ الشوارع والحـــدائق المنزليـــة الصغيرة في مرحلة انتشار عجيب. أوله سكان المنطقة إلى انجـــراف التربة من جبال الشمال حيث رسمت بصماتها على شواطئ النهر.

انفض السامر. وانهالت الرؤى فوق الـــرؤوس توزعـــت الخطى متجهة إلى المخادع. الساعة تـــشير إلى الثانيـــة عـــشرة.. منتصف الليل. وحفيف نسمة الشمال تداعب الأغـــصان تقلـــق القطط المتجولة بين براميل النفايات.. حراس الليل.. وزوار الفجر .. الذين يختفون مع بزوغ أول أشعة الشمس. لإعادة الحيـــاة إلى هذا الشق من الأرض.

[4]

لم يلاحظ المواطنون الأنفاس الغريبة التي أخذت تتـــسلل

وتندس بينهم وقد ارتدت كما مات ضد الغبار المسموم.

[5]

النهر أخذ يرتفع منسوبه. المياه قدمت من الشمال بلـــون داكن تعبق منها رائحة غريبة نافذة تصرع من حولها.. تقتل الحياة.

[6]

(أزاد) تقف خلف زجاج نافذتها المطلة على النهر تسرح شعرها تترقب مرور قوارب الصيادين. وقوارب الأطفـــال الـــذين ينقلون الحاجيات والركاب على ضفتي النهر.

كان النهر مهجوراً وأشعة الشمس تعكس اللون الجديـــد للمياه. قربت وجهها من زجاج النافذة تتأمـــل الحـــدث الغريـــب وفتحت النافذة أزكمت أنفها الرائحة الغريبة فأغلقت أنفها بيـــدها ثم سارعت إلى إغلاق النافذة. وهنا لمحت مجموعة مـــن الخـــوذات المكممة تركض في جميع الاتجاهات وأخذت تمخر عبـــاب النـــهر قوارب مطاطية ذات لون داكن.

شعرت (أزاد) بالخدر يسري في عروقهـــا فاتجهـــت إلى فراشها ثم تمددت وأغمضت عينيها وهي تتدثر بالغطاء. وراحت في سبات عميق.

[7]

توقفت الحركة على ضفتي النهر ..

[8]

الزهور الصفراء. أخذت تقاوم الغبار المسموم. باهتزازها الناعم في خيلاء رغم انسحاق بعضها تحت أحذية الغربـــاء الـــذين أخذوا يتجولون بحرية في كل مكان.. يبنون المتاريس.. يوزعـــون الأفراد.. يحتلون المواقع الحساسة وتمركز أفراد القناصة في مـــآذن المساجد.. فوق أسطح الدور العالية وخزانات المياه.

عندما انتهت المهمة أخذ كل فرد يفتح أزرار قميـــصه.. ورباط حذائه.. ثم ينزع الخوذة من فوق رأسه.. ويزيح الكمامات عن أنفه والقناع عن وجهه.. ليتم تبادل الحديث بحرية وهدوء بعد انتهاء المهمة التي لم يكن يتوقع الجميع أن تكون بهذا اليسر.

وتوقفت الكلمات فوق الشفاه التي تهـــدلت فجـــأة .. وجحظت المقل.. وأخذت الأنفاس تتلاحق .

[9]

الزهور الصفراء تهتز.. تعبر عن وجودها وحبها لـــضفتي النهر الذي وهبها الحياة فأخذت ترقص جذلاً مستقبلة الفيـــضان

الجديد الذي كان أقل منسوباً من الأعوام السابقة بفضل الـــسدود المقامة حديثاً.

[10]

(أزاد) أخذت تتململ في فراشها. نزعت الغطـــاء عـــن جسمها. ونهضت من الفراش وارتسمت علـــى شـــفتيها علامـــة استفهام ـــ حيث نامت بكامل ملابسها ـــ وتذكرت مياه النـــهر الداكنة فأسرعت إلى النافذة. فإذا بالماء صاف يلمـــع كالرصـــاص والزهور الصفراء تهتز والقوارب الصغيرة تمارس عملـــها اليـــومي فأراحت جبينها على الزجاج لتلمح بزة داكنة مكومـــة في نهايـــة الممر.

* * * *

أوراق اليانصيب

انهار المبنى وتناثر الغبار في الفضاء. أخذت الشظايا تهشم جباه المارة، وزجاج العربات ونوافذ وأبواب العمائر المجاورة.

* * *

صبي صغير يبيع ورقة اليانصيب. شاهد العربة التي دخلت من بوابة المبنى.

* * *

قائد العربة فتاة شقراء ترتدي بزة عسكرية. ونظارة شمسية قبل أن تلج المبنى اشترت ورقتي يا نصيب واحدة لها وأخرى لمرافقها في العربة. وتنازلت عن بقية القطعة النقدية للصبي ثم مسحت على شعر رأسه واندفعت إلى داخل المبنى.

* * *

أقبلت عربات الإسعاف والـــدفاع المـــدني ودوريـــات الشرطة. وتكوم المارة. يبصقون الغبار الذي أخذ يكتم أنفاسهم.

* * *

بائع أوراق اليانصيب. تناثرت أوراقه فوق الرصيف مـــن أثر قوة الانفجار فلم يهتم بجمعها وإن كان يمسك علـــى الورقـــة النقدية الكبيرة التي دسها في أحد جيوب بنطالة.

* * *

أقتحم الصبي الجموع. يبحث عن قائدة العربـــة. وقلبـــه يتمنى أن تكون سليمة لم يمسها سوء متـــذكراً كلماتهـــا الرقيقـــة ومسحها على شعر رأسه.

* * *

خرجت أول جثة من تحت الأنقاض. بدون رأس. كمـــا استطاع رجال الجيش إخراج أجزاء متناثرة كونت جسداً واحـــداً أخذ الجميع يتأملونه مبهوتين. إذ أن الأطراف مختلفـــة الألـــوان.. والسماكة.

* * *

الصبي يحشر رأسه في كل فتحة يستطيع أن يجد فيها ممراً يقترب فيها أكثر من المبنى المنهار.

* * *

شعر الصبي بالإرهاق فعاد إلى مكانه. في زاوية الـــشارع

حيث كان يبيع أوراق اليانصيب. وأخذ يجمع بقايا أوراقه المتناثرة والتي مرت فوق بعضها أحذية المارة لم تلفت أنظارهم ببريقها والحظ القادم من خلال أحد الأرقام. ثم تمدد في مكانه مستنداً على الحائط الذي خلفه.

* * *

قفز الصبي من مكانه. صرخ. إنها هي وأخذ يعدو نحوها. أجل كانت هي مع رفيقها يغادران المكان بعد أن تم تنفيذ العملية بهدوء.

القدر يتربص بالصبي الصغير الذي أصر على اللحاق بهما. لم يسترع انتباههم نداؤه المتكرر.

* * *

اتجه الاثنان إلى عربة تقف في أحد المنعطفات. جلست خلف المقود وأدارت المحرك. هنا شاهدت الطفل يعدو نحوهم اكتسي وجهها الأشقر بالفزع أعدت العربة للانطلاق ثم تأملت رفيقها في المقعد. كان صامتاً. تجلدت تقاسيم وجهه تحجرت أطرافه وانصب نظره على الصبي الذي أخذ يقترب من العربة.

راقبت اتجاه نظرات رفيقها المتجلدة. لم يبق للصبي سوى خطوات ويلامس العربة. وهنا رفعت قدمها من فوق الكابح. مرت العربة فوق جسد الطفل الذي تضرج بدمه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة بينما يده تمسك بالجيب الذي يحوي قطعة النقود الكبيرة.

* * *

اختفت العربة في الزحام. لم يشاهد المارة الطفل المقتول.

* * *

تحدثت الصحف في اليوم التالي عن البناية المنهارة وعـــدد الضحايا وأسباب الحادث الذي كان عن طريق عربة جيب محملـــة بمتفجرات أوقفت أمام مدخل العمارة. وفي الـــصفحات الأخـــيرة منها بيان بالأرقام الفائزة في السحب الشهري لأوراق اليانصيب .

* * * *

رجل يبحث عن وظيفة

أنت مقتول. سوف تسمل عيناك وتحرق أطرافك بمحاليل حارقة تذيب الحديد. وعندها سوف يتوقف ذلك الصوت القادم من أعماق الفضاء عن النداء باسمك. ومحاولة إرشادك الطريق. حتى تصل وتقول في هدوء لها: إنك الآن اكتشفت بأن الحب يملأ كيانك. وأن الدنيا لا شيء بدونها..

* * *

رفع سماعة الهاتف. وأخذت أصابعه تضغط على أزرة الأرقام التي تكون رقم هاتفها..

ـ الوه.. ألوه..

ـ كيف الحال ..

ـ وارتفع صوتها. معلناً الاحتجاج على غيابه الذي طال

أكثر من المتوقع..

ـــ أنها أربعة وعشرون ساعة فقط.

ـــ ماذا ..

عادت إلى هدوئها.. وأخذ يبحث من خلال صوتها عـــن سبب خروجها مبكرة من الدار. وعودتها في الحادية عشره مساء ثم انشغال الهاتف حتى الواحدة بعد منتصف الليل.

* * *

انهم يسرقون الأطفال في المتنزهات العامة.. كان الحديث يدور هامساً في التلفاز الذي يقبع مع زوجين افترشا أرض إحـــدى حدائق المتنزهات العامة في المدينة. وعلى مد البصر كان سمير وعبير يتسابقان في طفولة بريئة لاامتطاء المراجيح والألعاب المزروعة هنا وهناك.

* * *

أخذ أحمد يتأمل ساعته. انها السابعة صباحاً. لا شـــيء في الوجود أمر من ترقب أزفان موعد على شخص فوضوي يشعر أن النظام قبر. والتعليمات غرف من الجبس لا منفـــذ فيهـــا ســـوى شبابيك تم تسويرها بقضبان حديدية رغم ارتفاعها وعدم الاستفادة منها.

الموعد الساعة الثامنة. سوف يدخل صـــالة الامتحـــان ليبحث من خلال الأوراق التي سوف تقدمها اللجنة المختبرة عـــن

موقع في ملاك موظفي الدولة العام. انها المرة السابعة التي يـــدخل فيها الامتحان في محاولة صعبة. قرر فيها التخلي عن وظيفة علـــى بند العمال ـــ استطاع الحصول عليها ـــ بواسطة ـــ ليعمل موزعاً لصور المذكرات الرسمية في إحدى الإدارات الحكومية للحـــصول على وظيفة داخل الهيئة.

* * *

انتهت مباراة كرة القدم. وقام رئيس الاتحاد الدولي مـــع رئيس الدولة بتسليم الكأس المذهب للمنتخب الفائز. بينما يقـــف تحت سارية العلم ـــ علم الاتحاد الدولي ـــ أربعـــة مـــن رجـــال الشرطة ومجموعة كبيرة من مصوري التلفزيون والصحف لتسجيل حدث إنزال العلم من فوق السارية وتـــسليمه للدولـــة المـــضيفة للمسابقة القادمة بعد أعوام أربعة.

ارتفعت الأكف مصفقة. وأفراد المنتخب الفائز يركضون بالكأس المذهبة أمام مدرجات مواطنيه. بينمـــا لاحـــظ المنتخـــب الحاصل على المركز الثاني أن عدسات التلفزيون والصحافة تتـــابع الأقدام الراكضة وبعين أخرى تنتظر إنزال العلم. فأهملت متابعـــة صعود أفراده إلى المنصة. هنا قرر قائد الفريق الانسحاب. ثم صرح في غرفة الملابس بأن الانسحاب كان حرصاً على سلامة لاعبيـــه. حيث أهملت الدولة المنظمة تأمين الحراسة الكافية بسبب الخلافات الأيدلوجية بين الدولتين.

* * *

رن الهاتف مرة واحدة.. تطلع في ساعته انها السادسة مساء إذا هي في انتظاره.. تململ في الفراش. وأخذت حواسه تتنبه الى الهدوء المخيم على الدار. تذكر أن زوجته وأطفاله غير موجودين وأنه وحيد منذ ألف عام.

تذكر أنهم طردوه من الفردوس الذي كان يعيش فيه عندما شعر بالسأم من الحياة الهادئة المملة فأعلن حبه على الملأ صارخاً بملء فيه أنه يحب وأن حبه هو الهواء والدم والحياة وما عدا ذلك لا شيء.

فوجئ الجميع بجنونه انه مجنون الآن. عليه أن يرحل. ورحل مخلفاً كل شيء حتى مفاتيح عربته تركها على الطاولة التي يقبع عليها التلفزيون. وغادرهم ماشياً على قدميه. مترقباً أن يلحق به أحدهم. وعندما طال انتظاره التفت إلى الوراء لعلهم يودعونه .. أو يتلصصون من النوافذ وعبر الأبواب المواربة. وإذا به لا يجد أحدا تخلى عنه الجميع حتى قطط الحي وكلابها السائبة.

* * *

منذ زمن لم يذق طعم الدموع. ولم يحاول الاغتراف من ذلك المنهل الحزين. ومع ذلك تكونت الصور القاسية في أعماقه تذكر. تهديد القتل وأخبار سرقة الأطفال وبيعهم في أماكن كثيرة من العالم.

تذكر الأكف المصفقة. وهو يزف خبر نجاحه في المدرسة وتفوقه في مادة الحساب والهندسة. انهم يضحكون منه حتى آخر قطعة نقدية ورثها من أسرته.

هنا نفرت دمعة صغيرة أخذت تنساب على خده. وتذكر أنه لم يبق على نهاية المهلة لتقديم أوراق الإجابة سواء عشر دقائق وهنا أغمض عينيه. وأخذ يملأ الفراغات بدون مبالاة ثم نهض من المقعد وقدم الورقة ملطخة بخطوط وفراغات في غير مواقعها. ثم وقع في كشف تسليم الأوراق. وأمام الباب الخارجي أصلح من وضع غترته ثم ولج الطريق العام واختفى في الزحام.

* * * *

أوراق من يوميات امرأة عاملة

* من بين الأشياء الرائعة التي أحسد عليها الحظ الـــذي خدمني في كل عمل أقدم عليه حتى لـــو أدى ذلـــك إلى تـــصدع الجدران على من حولي.

إنما هذه المرة خدمني بشكل آخـــر. قـــدم لي تـــضحياته الكبيرة ولكن لأفقد عقلي. فأخذت أشك فيمن حولي. وأنهار لأقل صوت مزعج أو صراخ يصلني عبر نوافذ المسكن الذي ســـكنت مؤخراً أو خلال الفتحات الصغيرة الموجودة في الأبواب متوهمة أن كل من حولي يتمنى موتي. حتى الخادمة التي أصبحت ملكي بدون عناء أخذت أخاف منها. أخشى أن أبقى معها وحيدة فتقوم بقتلي وأنا متمددة في فراشي من الإرهاق عندما تغفو عيني لحظات.

* * *

* تسرب هذا الوهم القاتل إلى أعماقي مؤخراً بعد أن وجدت في عيون من حولي الشك في تصرفاتي كامرأة مثقفة ومتعلمة.. تستطيع من خلال ما تلقنته من المدرسة أو الجامعة أن تفرق بين العمل الطيب والعمل السيئ المكروه الذي يفقد الإنسان كرامته.

* * *

* أنا امرأة مهجورة. هجرها زوجها فجأة دون سبب يذكر وبحث عن أخرى لإشباع غرائزه. لا أدري ما هي الأشياء التي افتقدها في. فتزوج أخرى. رغم الألفة التي بيننا والتفاهم الكبير حيث كنت أتمسح به كجارية عاشقة لأتفه الأسباب حتى يصفح عني وهاهو يهجرني..

ـ أنني أبحث عن السعادة.

ـ وهل كانت السعادة مفقودة في حياتنا.

ـ لم تكن مفقودة. إنما لاحظت أن طباعنا متنافرة.

ـ متنافرة.

ـ الأشياء التي أحبها.. تكرهينها.

ـ الأشياء السيئة.

ـ ولماذا. لا نتهادن حتى نصل إلى منحنى السعادة.

ـ وكيف يكون التهادن.

ـ تتنازلين عن كبريائك قليلاً.

ـــ أنا..

ـــ أجل أنت.. السعادة التي اغترفنا منها الكثير. في أيامنا الأولى.

ـــ لقد كنت غرة.

ـــ وأنا كنت مغروراً بك ..

لم نكن نصل إلى نتيجة في كل حوار يدور بيننا. إذ أننا نتشابك بالأيدي وإذا كان صافي الذهن ولديه موعد مع أصدقائه يرمقني بنظرة ثاقبة ثم ينسحب ويرتدي ملابس الخروج ولا يعود إلا في الساعات الأولى من صباح اليوم التالي.

* لن أتوقف عند الأشياء الصغيرة والبديهية في حياتي. منذ أن قدمت إلى هذا العالم. حيث الفرح الغامر الذي انتاب والدي فقد كان مقدمي بعد خمسة أعوام من الجدب والبحث عن مكان يوجد فيه علاج من أجل الحصول على طفل.

أطل ـــ عبد الرحمن ـــ وأنا في نهاية المرحلة الثانوية من أسرة غنية تعرف فجأة على والدي من خلال العمل. ارتاح له والدي كثيراً في بادئ الأمر. وأخذ يتحدث عنه كثيراً.

إنما عندما قلت ـــ نعم ـــ اعترض كثيراً وخاصمني وأمام دموعي أصدرت والدتي أمرها بالموافقة. واستسلم على مضض لم أكن أعرف سر الرفض المفاجئ.

* * *

* مع مرور الأيام اكتشفت الحقيقة التي كانت غائبة عن ذهني لحظتئذ .. وأوقعت والدي في حرج إذ أنه كان ــ عبد الرحمن ــ يشارك والدي وبعض الأصدقاء سهراتهم التي لا تخلو من الإثم في نهاية كل أسبوع خارج المدينة. أو في دار أحدهم. ولم نلاحظ ذلك على والدي الذي كان يأوي إلى غرفته وحيداً في الهزيع الأخير من الليل ومن هذا المنطلق. كان خوفه علي الذي حطمته بحبي الأعمى وعدم التروي في الاختيار الصحيح.

* * *

* القصة كبيرة.. والحظ الذي كان يتهادى أمامي جذلاً يقدم لي على طبق من الذهب كل ما أشتهي اختفى الآن بعد مرور أربع سنوات. جاوزت فيها المستحيل. تغلبت فيها على طموحي وواصلت دراستي حتى غدوت موظفة. وتغلبت على وساوس زوجي الذي يأتي بعد منتصف الليل فاقداً الشعور. يطالبني بالعشاء وإكمال السهر معه حتى الصباح. دون احترام.

ولكن الحظ .. ذلك الإنسان الوهمي تقدم لي هذه المرة في صورة صديق لزوجي. أخذ يواسيني في المحنة التي أنا فيها عبر الهاتف ويخفف من آلامي.

شعرت بقربه مني والتصاقه بي رغم عدم إفصاحه عن اسمه ولكن تأكد لي أنه قريب ينتمي لإحدى الأسرتين.. أسرتي.. أو أسرة زوجي. لمعرفته بكل الخفايا الأسرية وحتى الصغيرة منها رغم

ادعائه بأنه صديق زوجي..

* * *

* لم يتسرب الشك إلى نفسي. ولكن في لحظة انفعال بحت بكل شيء لعبد الرحمن قلت له كل ما كان يدور بيني وبين صديقه في الهاتف وعندها ثار..

أخذ يركلني بقدميه.. ويصفعني على وجهي بكلتا يديه ويسحبني من شعري وهو يصرخ..

ـــ خائنة.. خائنة.

ـــ أنا..؟

ـــ أجل .. أجل.

وانهار يبكي. بعد أن لطخ الدم وجهي وانسحبت إلى غرفتي أجمع ملابسي وخرجت من أمامه وهو يتأملني خلال دموعه. دون أن ينبس بكلمة.

عدت إلى دار والدي. الذي استقبلني بالدموع. وشعر بأنه السبب في كل ما حصل لي رغم أنني لم أتحدث كثيراً عن الأشكال الذي دفعني إلى مغادرة داري.

ـــ لن أعود إليه ..

ـــ كل شيء خير يا بنتي.

ـــ لقد ضربني .

ـــ ما رأيك آخذك للمستشفى حتى يتم كتابة تقرير

بذلك نقدمه للشرطة. . ؟

وقفزت من مقعدي.. الشرطة.. لن يكون ذلك.. حدثت نفسي بهذا وأنا أتخيل الأحداث السيئة تمارس رغم أنفي. كـــشريط سينمائي.

ــ الأمر لا يحتاج إلى ذلك.

ــ وعملك.

ــ سوف أتصل بهم. وأعتذر عن الحضور حـــتى تـــزول الكدمات.

تذكرت. كل هذا بعد عشر سنوات من الوقوف وحيدة في مهب الريح لأحمي أطفالي الثلاثة من نوائب الزمن وقد رفـــض عبد الرحمن تطليقي.. أو الصرف على أطفالي وخوفاً من أخـــذهم مني رضيت بالواقع. الذي شعرت فيه بأنني امرأة مهجورة فشلت في أن تعيش. وها هي الآن تقف على مفترق الطرق تبحث عن من يقف إلى جانبها. حيث كنت في بعض أوقات الوهم القاتل أهـــرب إلى الهاتف أشكو لصديقاتي ولأشخاص لا أعـــرفهم ولا يعرفـــون أمري؛ لأجد لحظات من السعادة الموءودة ووجدته.

إنما الوهم القاتل كان يقف بيننا. أخذت أشعر بقربه مني ومدى إحساسه بما أعاني لكن الخوف المترسب في أعماقي يـــدعوني للهرب خوفاً من واقع مظلم.

كان والدي في هذه الرحلة رفيقي الوحيد بعد أن رحلت

والدتي إلى العالم الآخر. يشعر بما أعاني يحـــاول أن يقـــول شـــيئاً لشعوره بالخطأ الذي ارتكبه في حقي.

إنما لم أعطه فرصة لأن يعتذر لإحساسي بأنه لو اعتذر فلن يكون هناك شيء أعيش من أجله.

* * * *

الليل الذكرى المرتخية

أين الضوء.. احترقت الثريات.. لم يعد في المكان سوى انفعال الحضور. من الكيد الذي يبدو أن مرتكبه ثقيل الظل. لا يهمه العبث بمصير الآخر من أجل الوصول إلى هدفه.

* * *

عاد الضوء مجدداً. إنما بعد أن خلا المكان من الحضور لم يبق سوى أفراد يعدون على أصابع اليد. هم أهل الفرح الحقيقيون يستمعون إلى حكايات نادرة الوقوع يرويها شيخ خرف لا يدري الجميع من أين جاء. حيث وجده الجميع أمامهم يجلس في صدر المجلس يرحب بالقادمين يسأل جلساءه عن الأهل والصحة.. مردداً أن الموسم موسم خير. معززاً توقعاته بالسماء الملبدة بالغيوم والتي اختفت نجومها وأقمارها بسبب ذلك فلم يبق أمام الساهرين

سوى الذهاب إلى دورهم قبل أن يهطل المطـــر ويجتـــاح الـــسيل الطرق.

* * *

أطل عابد على المجموعة الجالسة وسرت في جسمه رعشة خفيفة وهو يلمح الرجل العجوز يتوسط الدائرة الذي ما أن لمحـــه حتى كف عن الحديث وأخذ يتأمله بعين حادة كعين صـــقر لمـــح فريسته من شاهق. فأخذ يركـــز حـــتى يحـــدد مكـــان الالتقـــاء والانقضاض وجد عابد أنه مدفوع إلى التقدم من الحلبـــة. فقـــام الجالسون مرحبين به. يباركون زواجه. متمنين له الرفاه والبنين من خلال السعادة المتوقعة فهناء جميلة بنات الحي وكبرى بنات جـــابر مثقفة معلمة بإحدى المدارس الأهلية تساهم بقسط وافر من أسهم الشركة التي أقامتها.

* * *

جلس عابد بالقرب من الشيخ حتى لا يـــشاهد البريـــق المطل من عينيه انهم يقتلونه الآن. أجل سوف يموت الليلة لا محالة. فالشيخ رسولهم الذي يتابع خطاه منذ أن قدم إلى هـــذه المدينـــة. يحمل قرار تعيينه في إحدى الإدارات الحكومية بعد أن شـــارك في الامتحان الذي أعلن عنه ديوان الخدمة المدينة...

قرر النزوح من بلدته وأهله والهجرة إلى الجنوب حيث لا ينتمي إلى أحد، وها هو في ليلة فرحة يجدهم أمامه من خلال بريق

حاد سمر قدميه في الأرض.

* * *

الفقر المدقع.. واليتم .. وزوج أم متلاف أتلف.. تركه أبناء زوجته على أقاربه. وتنقل ممجوج لا داعي له من خلال حياة أفضل يلغي كل الارتباطات والقيم. .. فغداً خدين حياة العبث ... الليل نهار.. مضاء رغم أن الشوارع الخلفية الآن.. ومنذ ملايين السنين تعيش الظلام الدامس طيلة أيام الشهر معربة عن رفضها لهذا الوجود الرافض الذي يسكن منازلها الصغيرة. غرفها الملطخة بصور نساء ملونة اقتنصها السكان من المجلات والصحف الواردة من وراء الحدود.. بشكل شرعي.. أو بطرق أخرى..

العجوز يسكن إحدى هذه الدور. وعابد مع مجموعة من رفاق الليل يسكن الدار المقابلة. الأمر الذي لفت نظر إحدى سيدات دار الشيخ. فأخذت تتسلل بين لحظة وأخرى إلى الدار المقابلة. بعيداً عن العيون بحثاً عن الحياة التي فقدتها وراء البوابة الحديدية الكبيرة.

* * *

دخلت المجموعة العابثة السجن. بعد مداهمة مفاجئة لرجال الشرطة. لم يكن هناك أحد سوى عابد. يقوم بترتيب أثاث الدار وبصمات رفعها رجال التحقيق. أنكر عابد وجودهم وبما أن لهم سوابق. فقد تم الوصول إليهم ومواجهتهم بما تم العثور عليه من

ممنوعات.

* * *

شعر أنه لا يستحق الحياة.. النظرات مصوبة إليه. حيث دار الهمس.. في الحي بأنه اعترف على رفاقه حتى لا يسجن مدى الحياة.. رغم ما تؤكده محاضر التحقيق بأنه لم يذكر أي أسم فلم يتم سجن أصحاب البصمات الباقية وكانت منهم إنما الباب الحديدي. تغير بعد أن خرج بعد خمس سنوات سجن والدار تحولت إلى مستودع لأدوات السباكة، محابس.. براغي.. مواسير.. أكياس من الليف .. البويات..

لم يكن الرجل.. قد وصل إلى هذه المرحلة.. تلفت عابد حوله.. وهو يهمهم.. يا الله أنه عامل الزمن.. كم تأخذ الأيام منا.. خمسة عشر عاماً.. الأيام ليست طويلة إنما بالنسبة.. لإنسان هذه الأيام.. مرهقة.. مملة.. زحام.. زحام يقف فيه الفرد طيلة حياته حتى يصله الدور.

أنه دوري أنا.. ولكن هناء عانس .. يقال إنها مطلقة.. يقال .. اكتشف زوجها أنها ليست عذراء.. أجل أعرف ذلك.. ومع ذلك سوف تكون شريكتي ما تبقى لي من أيام في هذه الحياة..

* * *

أنت مجهول .. لا نعرف عنك شيئاً .. أين أهلك.. أهلي أنتم.. أمك.. أبوك.. أخوانك .. أبناء عمومتك.. كلهم هنا.. أين

يقيمون.. داخل هناء.. لم تحاول هناء الوقوف في طريق الـــسعادة القادمة. التي كبلتها من كل ناحية لذا رفضت كل التوصـــيات.. لتنفرد برأيها.

* * *

نهض الرجل المجهول .. أصلح عباءته فوق أكتافه وأمال عقاله قليلاً ثم لف غترته حول وجهه الأشيب حتى لم يعد يبدو من محياه سوى عينيه.. مد يده نحو السمار مودعاً .. يشد على كـــل يد.. رمق عابد الذي لم ينهض من مكانه حيث كان يفكر ساهماً.. غير عابئ بما يدور حوله.. انتفض عابد وعاد إلى الواقع ونهض من مكانه ثم مد يده إلى الرجل. ثم شده إلى صدره..

انهالت دمعة صغيرة فوق خدي عابد.. تأملـــها الرجـــل قليلاً ثم رفع يده ومسحها بأنامله واحتضن عابد مرة أخرى وهمهم بصوت متهدج.. مبارك يا ابني..

* * *

تلفت الساهرون حولهم .. محاولين معرفة ســـر الرجـــل فقابلتهم الدهشة المرسومة على محياه.. وابتسامة صـــغيرة أطلـــت فجأة كومض برق شلت السؤال.. واتجه إلى الباب مغادراً المكان.. أمام همهمة متقطعة. لتسأل تلاشى عبر زغاريد نسوة تؤكد للجميع أن هناء أكملت زينتها. وهي في طريقها إلى قاعة الحفل الكـــبرى لتقف مع عابد أمام عدسات المصورين من الأقـــارب. لتـــسجيل

حدث خالد.

أخذ عابد.. بيد هناء واتجه إلى القاعة. كانت تقول شـــيئاً وهو كان يقول شيئاً. إنما هذه الأشياء لم يستطع أحـــد الوصـــول إليها. رغم التصاق الجميع بهم. وأخرج من جيبه عقداً ذهبياً قديماً. زرعه فوق صدرها. أدهش الحضور أمام باب العربة الـــتي أقلـــت العروسين إلى منزل الزوجية.حيث وقف أطفال يرتـــدون الملابـــس البيضاء ويحملون الشموع وسلات الزهور.

وقف الاثنان.. بينما كان الرجل العجوز يتأمل المـــشهد من مكان منزو في الشارع.. لمحه عابد فأسرع إليه.. شده من يده..

هز الرجل رأسه رافضاً.. اختفى في الظلام.. بينما هنـــاء تكرر السؤال.. من يكون.؟. لم يقو على الجواب لأنه لا يعـــرف. إنما في نظراته شيء يقول أنهما كانا معاً..

* * * *

النار وأعياد الميلاد

توقف ... صرخ ... صوت أجش.. أعلن الرفض ساقاي تساعداني على الجري.. حتى أغادر المكان، توقف.. ذات الصوت الأجش، وقد كان هذه المرة مصحوباً بعيارات نارية. أخذت تتناثر حولي.

الخط المستقيم الذي أعدو هارباً من خلاله أصبح متعرجاً.. ساقاي تنبعث الروح فيهما... روح ملاك أخذ يطير فوق البسيطة.. كفراشة ربيع... تنتقل من زهرة إلى أخرى... يشدها صخب الأطفال .. فأخذت تقترب.. رويداً رويداً.. وإذا بهم يلاحقونها بعد أن هجروا لهوهم لضمها إلى محتوياتهم.

سائل حار أخذ يترٌّ من تحت الكتف الأيمن لابد أنه دم. حاولت أن أتلمس ذلك إنما تذكرت أن هذه الحركة سوف تعطلني

عن المواصلة والاختفاء عن عيون المطاردين.

لا أدري كيف دخلت الحرش الذي تسللت إليه قواتهم. أين الحرس. وصفارات الإنذار.

أنه الميلاد. حيث يأوي الجميع إلى دورهم.. للاحتفال بتوديع عام واستقبال آخر.

هناك كوخ.. لا أتذكر أني شاهدته رغم إحاطتي بالمكان. يشكل النور المنبثق من نوافذه عيون قطة سوداء. رغم صوت الموسيقي الذي يشق الظلام.

الصوت الأجش توقف عن النداء. والعيارات النارية صمتت هي الأخرى.. دفعت الباب بقوة.. تأملت الجميع.. أعرفهم.. إنما أين شاهدتهم لا أحد يتذكرني.. أو يمد يده مصافحاً. وأثناء.. التأمل انبثق الدم من العيون. عندما فتح الباب مجدداً.. قفزت من مكاني على الأرض. جرى تبادل إطلاق النار.. أخذ النور يغمر المكان طلقات نارية.. طلقات.. طلقة واحدة.. عاد الصمت للمكان.

* * * *

الصورة

وقفت أتأمل أكشاك العصافير الملونة. على مدخل أحد المحلات التي تقوم ببيع الزهور والعصافير الملونة.. فوجدت يدي تمتد له مسلمة... دافع في داخلي شدني إليه... يدفعني إلى الالتحام به.. هاجس يقول هذا توأم، مشاعر انكفأت ذات يوم.

صحوت على صوت شقيقتي وهي تدعوني إلى مغادرة موقعي. لإكمال جولتنا في السوق من أجل إرشاد أخي للأشياء المطلوب اقتناؤها.. حيث أنه تقدم لخطبة صديقه لنا. وتكفلنا لمعرفتنا لذوقها بتوجيهه رغم معارضة والدتي لنا. وتركي أطفالي الثلاثة عندها مما حرمها مشاركتنا في التجوال والاختيار.

* * *

أسامة لا أعرف ماذا حدث له هذا المساء. رغم تضحيته

بأن أشارك أسرتي فرحها. وجدته صامتاً على غير عادتـــه. أخـــذ يتأملني وأنا أغير ملابسي.. وأنا أتجه إلى غرفة أطفالنا للتأكد مـــن أغطيتهم. ولمعرفتي به كفنان. رضيت بالصمت الذي انتميت إليـــه حتى لا أشغل لحظات سعادتنا بأمور بسيطة. أدرك أن نهايتها ليست جيدة وخاصة من خلال أسامة الفنان الـــذي يهـــرب إلى ألوانـــه بهستيريا غير مقبولة.. هاجرا عمله الرسمي.. منطوياً في مرسمـــه. لا يكلم أحداً.. وإذا شعر بأنني سوف اعتذر لما بدر. يعـــود لحالتـــه العادية... إنما هذا المساء هناك أمر مستجد.. رغم إدراكي بأنـــه لم يحدث خطأ بعينه.

الساعة تشير إلى الثانية صباحاً.. أسامة يجلس وحيـــداً في مرسمه... أنا أقلب صفحات كتاب جديد بـــدأت تـــصفحه منـــذ أسبوع ورغم لهفتي على هضم محتواه. تأخرت في التهام ســـطوره شعرت بالبرد يقرص أطرافي. فأطبقت الكتاب ونهضت من الفراش توجهت إلى المرسم.. وجدته مشدوها يتأمـــل لوحـــة جديـــدة.. انتصبت فوق الحامل. بينما الفرشاة بين أصـــابعه... لا أدري بمـــا يفكر ... حفيف منامتي.. ووقع إقدامي الحافية.. ودفعـــي للبـــاب الموارب شدوا انتباهه فأخذ يتأملني.

* * *

طفت صورة الرجل الذي قابلته في محل بيع الزهـــور إلى السطح.. أنه قبالتي.. تسمرت في مكاني وقد احتبـــست صـــرخة

مجهولة في داخلي .. الرجل يتأملني.. أنا أقف في فتحة البـــاب يـــد أسامة تفلت الفرشاة... تتناول يد أخرى قلم رسم أسود أخـــذت تخطط على اللوحة بشكل مذهل. بدأ التكون يظهر .. تكرر بروز وجه الرجل على اللوحة.. أخذت صورة أسامة تـــبرز.. العـــرق تصبب من جبينه. والإرهاق باد على محياه.. أسرعت نحوه انحنيت القى برأسه على صدري.. أخذت أداعب شعره بأنـــاملي. وأنـــا أتأمل الصورة..

* * * *

اللعبة

تلاشت الصور أمام ناظريها بعد أن حرمت من السعادة التي كانت تتوقعها من خلال موافقتها غير المتوقعة بالزواج من أحمد الذي ما أن سمع موافقتها حتى أخذ يتحدث بشكل هستيري عن السعادة التي سوف يجنيها من هذا الزواج.

اشتعلت الثريات في الشارع الموازي لمتزل أسرتها ـ رغم أن الحفل الذي تم التعاقد لإحيائه مع أشهر مطربات الطائف (بنادر) التي صعدت سلم الشهرة من خلال تمسكها بخط واضح في حياتها الفنية توشح ابتسامتها الصغيرة الأبدية ظلال من الحزن مقره أحد الفنادق الكبيرة.

لم يطرح أي سؤال على (سماهر) التي طوحت بكل الأحلام والمواقف رغم علامات الاستفهام التي أخذت ترتسم بينها وبين زميلاتها في الجامعة، إذ إن هناك بالإضافة إلى المفاجأة في القرار

أختين تكبرانها بالسن لم يتم تزويجهن.

ولكنها تجاوزتهن لتكون الأولى.. لتغلق على كل الأفكار والأماني والطموحات باب سرداب أعماقها وكأنها في مرحلة تحدٍ مع وهم لم يستطع حتى الخيال تكوين معالمه.

* * *

أخذت تقلب الصور التي أخذت أثناء حفل الزفاف وحيدة في غرفتها التي تقبع في ركن بعيد من الدار الكبيرة التي تسكن فيها أسرة أحمد.. إنها تبتسم في كل الصور. لكن هذه الابتسامة غارت مع مرور الأيام لتعلن عن مقدم الجدب الذي فرت منه ذات يوم. فإذا به يطل من كل ناحية ليخنق صوتها ويواصل امتصاص إكسير الحياة التي غنت لها ذات يوم غير مبالية بما يترتب عليها، رغم نظرات الحقد التي كانت تتابع خطواتها الناجحة في إيجاد بديل لصديق انهزامي وفي الاستحواذ على حب زميلة جديدة تشاركها أفكارها وترتاح لجرأتها في مناقشة شتى الأمور حتى تلك التي يحمر لها الوجه ويندي الجبين عرقاً.

* * *

أطل (أحمد) كالعادة باسماً.. إنما هذه البسمة والتي تعتبر امتداداً لصوره الصامتة أثناء حفل الزفاف جاءت في غير موعدها بعد أن سرت همسات بين المدعوين بأنه مرغم على الزواج منها بعد أن سلبها عذريتها حيث شاهدها أكثر من شخص وهي تترجل من عربته.

كانت كل شيء في الدار حتى لتبدو أمام الجميع بأنها (البنت الكبيرة) رغم معرفة الجميع بأنها الصغرى. إلا أنها المخطوبة في كل زيارة للبحث عن زوجة ــ سماهر ــ هي الفتاة المطلوبة مما ولد الضغينة في صدر الجميع. رغم الاحترام والتقدير المتبادل.

* * *

أحمد عرفته عن طريق إحدى الزميلات حيث كان ينتظرها أمام بوابة الكلية.. شعرت بارتباك زميلتها عندما لمحته فابتعدت عنها حتى تمنحها فرصة الذهاب معه. وأصرت الصديقة على مواصلة السير معها.

تكرر تواجد أحمد الأمر الذي أصبح قدومه من أجلها وليس من أجل صديقتها التي أشاعت عندما علمت بخطوبته وترتيبات الزواج السريعة بأن في الأمر ما يستوجب التأمل.

* * *

كانت تراقبه أثناء حفل الزفاف.. بعين متلصصة لمعرفة تأثير حضور صديقتها الحفل. فكان صمته وارتباكه والرهبة المسيطرة عليه ستاراً أخفى كل ما يعتمل في داخله.

* * *

سماهر.. سماهر.. كان الصوت مألوفاً، لكن من يكون؟. إنه وجود ينتمي إليها، يعيش في كل قطعة من حياتها. ولكن من يكون؟! أخذت تسترجع الذاكرة التي لم تسعفها.

: بدر..

: بدر.. بدر من ..؟

: كنت أتوقع . إنك نسيته.

وتذكرت رفيق الطفولة الذي اعتبرته الأسرة منها فلم يتابعوا لحظات وجوده في الدار التي كان يعرف كل زاوية فيها فلم يهتموا بدخوله أي غرفة مهما كان وضع من فيها. ووجدت فيه الغر الذي أخذت تداعبه من خلال لعبة العريس والعروسة وإذا اكتشفهم أهل الدار يضحكون في سذاجتهم ثم يقررون في بلاهة أن سماهر لبدر وبدر لسماهر . ولكن انتقال عمل والد بدر إلى مدينة أخرى خفف من حدة هذه الجملة التي تلاشت برحيل بدر إلى الخارج لمواصلة الدراسة وانقطاع أخباره عن أسرته وبالتالي انقطاع الاتصال بين الأسرتين.

* * *

قررت عدم الاتصال به، ولكن صوته الذي يصلها كل مساء عبر الهاتف أخذ يغريها بتحديد موعد للقاء. لم تكن تبالي بأنها غدت في وضع آخر غير الذي كانت.

لم يكن بدر يملك عربة فأخذت تتجول معه في الطرقات يسرق الحديث وقتهما فلا يباليا به. وفجأة وجدت أنهما في مسكنه المهجور الملاصق لدار أسرتها وتذكرت لعبتهما المفضلة العريس والعروس. وتذكرت أنها هي العروس لكن العريس شخص آخر في

مكان آخر يترقب عودتها فلم تكمل شرب عصير البرتقال ونهضت مستأذنة.

* * *

تزوج بدر من عبير الأخت الكبرى لسماهر والتي تعمل موظفة بإحدى الوظائف العامة. وأخذت بقعة الجدب تكبر ملتهمة مساحات أخرى من الوجود معلنة النكبة الشاملة إذ إن بدر وجد في سماهر فردوسه المفقود فاستغل زواجه لمواصلة البحث عن أبواب يعود منها إلى كيانها كوجود مزهر، غير أنها لاحظت ذلك فأخذت تعيش هواجسها الأمر الذي أثر على صحتها وعلاقتها بالآخرين.

: لقد كنت تتحدثين عنه.

: من؟

: بدر.

: متى؟

: البارحة كنت تترجينه أن يبتعد.

كان حلماً لا تدري ماذا دار فيه. إنما كيف انطلقت كوامن نفسها ولمحت في عينيه حديثاً آخر. إذ أخذ أحمد يذكرها بالحلم ويطالبها بالإفصاح عما في داخلها وشعرت بأن الشك تسرب إلى أعماقه فأخذ يحاصرها بمراقبته الأمر الذي دفعها إلى العودة إلى واقعها الذي كانت تعيشه قبل أن تتزوجه مستخلصة

منها الصور التي عاشتها من خلال أحمد فإذا بها تتردى في مهـــاوي الجدب.

: إنني أبحث عن ذاتي.

: وهل وجدتها في ..!

: قد يكون ذلك.

كانت مرحلة جديدة. وجدته يقف أمام عربته في باحـــة المستشفى العام. أخذ يتابع خطاها وهي تدخل ثم لحق بها وهي تقوم بأخذ بطاقة مراجعة من مكتب الاســـتعلامات. وانتظرهـــا حـــتى خرجت من عيادة الطبيب ونهض عندما لمحها تتجـــه نحـــو بوابـــة المستشفى. كانت تتابع حركاته منذ البداية فلم تنفعل أو تثور.

بعد أن قررت رفض ذاتها فإذا بها تعود إلى مرحلة الطفولة التي تبحث فيها من خلال أي طفل في الشارع عن عريس لتكـــون هي العروس...

* * * *

انشيال حلم شاهق

استقر رأيه أخيراً على تنفيذ ما جاء في أمر النقـــل. إنهـــا محاولة أخرى لمعرفة الجديد؛ لذا ارتدى (البالطو) الملقى على مقعده وأحسن قفل إدراج المكتب وغادر الدائرة.

اتجه إلى عربته القابعة في ساحة الدائرة حيث يحرص على إدخالها يومياً رغم احتجاج البواب والمسئولين لحاجة في أعماقه. لم يصل إلى تصور كامل لها رغم انتمائه الوظيفي للدولة. وقبـــل أن يترجل آخر درجة في سلم الباب الخارجي للدائرة شـــنق الموقـــف نظراته فتسمر في مكانه.

العربة محشورة بين رتل العربات، والمنفذ الوحيد تقف فيه عربة صغيرة بشكل عشوائي.. وأكوام مـــن أصـــحاب العربـــات يلتفون حولها. إنهم يريدون الهرب ولكن إلى أين؟ قد يكـــون هـــو الوحيد الذي قرر الهروب إلى مرحلة التلاشي إذ لم يكـــن هنـــاك

هدف من خروجه من المكتب سوى عدم وجود العمل في هذه اللحظات وفي الزمن المتبقي من وقت الدوام. إنما يجب عليه أن يقعي في مقعده يتأمل الوجوه في بلاهة متناهية محاولاً أن يستشف من الحديث الدائر وحركات المراجعين للموظفين الآخرين نقاطاً أزلية تتلاشى فيها مرحلة الزمن الضائع في مدينة حاول المستكشفون سبر أغوارها ورسمها فوق خريطة الوجود الذي كان هلامياً فكانت الأيام والشهور والأعوام تجتر حالها بصورة متكلسة تقول التداعي.

اقترب من العربة المحاصرة وتلفت حوله باحثاً عن مخرج لكن كل الحراب مصوبة نحو صدره وعليه أن يرفع يديه مستسلماً حتى لا تسقط قطرة دم تزرع القذارة في الساحة المزروعة.. عربات وأجسام بشرية تحاول إيجاد محكمة ومنصة شهود ومدعين عموميين للنطق بالحكم في غياب القاضي الذي فضل في مثل هذه الساعة أن يواصل نومه، فالقضية! مهما كانت، تحدد مصير أفراد. إنما ذلك لا يهم بالنسبة للحظة رقاد فالسجن مؤبد وقرار الحكم صريح يحرم الخروج من الغرفة التي سدت منافذها بالستائر الذهبية لتخلق مع الضوء الأخضر الخافت مرحلة حلم.

استطاع المكومون حول السيارة التي تقفل المدخل فتح أبوابها المغلقة، وتعاون الجميع في زحزحتها من مكانها إلى موقف شاذ في عرض الساحة لتعلن كشاهد إثبات عن موقع صاحبها.

يكفي هذا...؟

كانت كلمة موقف لردع أحدهم عن القيام بإفراغ دواليب العربة من الهواء. رمقه الجميع بنظرة فاحصة، وعندما لاحظ أن علامات الاستفهام المزروعة في عيون من حوله تحاول وصمه بالعمالة غادر مكانه في هدوء وهو يخرج من جيبه في حركة مكشوفة مفاتيح عربته ليعلن بها أنه أيضاً له بالداخل عربة وأنه مثلهم واقع في المشكلة.

الساعة تشير إلى العاشرة صباحاً.

خط السير كالتالي:

1 ــ المرور من جانب البناية البيضاء الضخمة حيث تقف الآن تحتها مجموعة من نساء العالم يترقبن حافلة العمل.

2 ــ اجتياز الطريق العام الذي يقسم سوق المدينة إلى قسمين لمشاهدة ما تحفل به واجهات المحلات وقد تكون إحداهن أزاحت الخمار عن وجهها لتفحص سلعة تهم بشرائها وقد تكون ــ بيان ــ التي انسلت من حياته بعد لقاء دام عامين امتص فيها رحيق الحياة شهداً، بعد أن قرر الجميع قتله على ضوء اختفائه من مرحلة العدم (!).

3 ــ الوقوف أمام مبنى البريد للبحث في صندوقه الخاص عن رسالة قد تصل يوماً، رغم علمه أنه انقطع عن كتابة الرسائل منذ احترقت في داخله مرحلة البحث عن الذات فلم يعد

أحد يهتم بأخباره.

4 ــ الدخول إلى مقهى للاستجمام وطلب (شيشة) وزجاجة من عصير الليمون. ثم تكون النهاية كالتالي وحسب حالته النفسية:

أ ــ العودة للعمل.

ب ــ العودة للدار.

* * *

ما زال في المرحلة الأولى وإشارة السير حمراء بينما نساء العالم في أزيائهن المختلفة مستكينات فوق رصيف العمارة في حديث لا يفهم منه شيء.

كانت إحداهن تتلصص تدعوه إلى الترجل من العربة ودعته إلى احتضانها، فافتر ثغره عن ابتسامة صغيرة كان لها أثرها في تحديد مسار الدعوة، وإذا بها تندفع نحوه.

مد يده نحو الباب الآخر للعربة لمساعدتها على فتحه رغم أن المسافة ما زالت شاسعة، واشتعل الضوء الأخضر وأزعجته العربات التي وراءه بمنبهاتها .. فأخذ يدفع العربة إلى الأمام في تثاقل باحثاً عن موقف ولكنها اختفت. فكان الإحباط المتناهي.

* * *

ولج المرحلة الثانية حيث يكون الزحام في ذروته في الشارع إنها هي! وصرخ: بيان.. بيان..

التفتت طفلة في الرابعة من عمرها نحوه ثم توقفت وشدت المرأة التي تمسك بها. بينما عسكري السير يتأمل رتل العربات داعياً في أدب جم الجميع إلى السير وعدم تعطيل حركة المرور.

: أهلاً بيان.

ردت الطفلة بسذاجة.

: أهلاً كيف الحال.

غادرت العربة مساحة المرحلة الثانية والسيدة لم تتفوه بكلمة.

: لماذا هذا الهروب يا بيان؟

ردت الطفلة..

: لم أهرب..

: بلى لم أشاهدك منذ ألف عام..

كان هذه المرة يحدث نفسه ويتأمل الطفلة التي ارتاحت في المقعد الخلفي من خلال المرآة المزروعة أمامه، ثم توجه بنظراته إلى السيدة التي أخذت تتحرر قليلاً من عباءتها وتصلح من جلستها في المقعد بعد أن كانت ملتصقة بالباب.

مد يده إلى اليد المزروعة على المقعد بالقرب منه وأخذ يصهرها ثم شدها نحوه، مانعت قليلاً ثم اقتربت. وأخذ يداعب أطراف كفها، بينما نظراتها التي لم يستطع تحديد لونها لكثافة الغطاء تتابع يده.

: لماذا لا تتكلمين؟؟

في هذه المرة لم ترد الطفلة التي تمددت في المقعد الخلفي وغفت، هنا شد الغطاء من على الوجه الذي أطل جميلاً إلى أبعد حدود الجمال وقد أغلقت مقلتيها في مرحلة احتجاج أخيرة.

صرخ فيها:

: من أنت..؟

: أم بيان..

: أم بيان.. ولكن أنا أبحث عن بيان ...!!

رمقت الصغيرة بنظرة سريعة.

: إنها هناك في المقعد الخلفي.

: من أنت..؟

: لقد قلت لك .. أم بيان.

الطريق المؤدي إلى المطار طويل، ومع ذلك لم يجد ما يقوله سوى الصمت، وكان اقترابها منه أخيراً بعد أن أصبحت العربة خارج المدينة يدفعه إلى زيادة السرعة، ويدها التي تعبث بشعر ذراعه تدعوه إلى الهرب.

: إلى أين..؟

: لا أدري..!

: ولكن علي أن أعود.

لم يقلق الطريق الترابية الجانبية الصغيرة التي رفعت رأسها

في حركة احتجاج على اهتزاز السيارة ثم عادت لمواصلة نومهـــا. وتذكر أن هناك من تنتظر عودته الساعة الثانية من كل يوم.

* * *

ترجل الاثنان من العربة. ألقت بعباءتها وغطاء رأسها على المقعد ثم أخذت تركض فوق التراب حافية محاولة دفعه إلى اللحاق بها والتعلق بالأشجار التي تملأ المكان. شعر بالارتياح فأخذ يجـــري خلفها محاولاً الإمساك بها.

: الساعة الثانية.

صفعته بذلك واتجهت إلى العربة بينما رفض النهوض من مكانه وأخذ يتأملها وقد رفعت فستانها عن ساقيها في محاولة أخيرة لتلافي الأشواك المنتشرة على الرمل.

ونهض من مكانه بعد أن أعياه التفكير في تكوين صـــورة لها ولحق بها ثم طوقها بيديه من الخلف واتكأ عليها فأطلقت فستانها وأخذت تقاومه..

* * *

تخيل أنه عجوز يتكئ على آخر لإيصاله إلى المرحـــاض. وضحك من هذه الفكرة فالتفتت نحوه مستغربة ضحكة ولم تجـــد بداً من مشاركته وهو يصر على الالتصاق بها حتى وصلا العربـــة، حيث كانت بيان تجلس في المقعد الأمامي تعبث بعجلة القيادة والتي ما أن شاهدتهما حتى ترجلت من العربة واندفعت إلى والدتها الـــتي

احتضنتها.

* * *

الساعة الثانية والنصف بعد الظهر..

كان يدخل المفتاح في قفل الباب الخارجي للدار الـــذي ران عليه الهدوء وتعلق في عنقه ابنه الذي انحنى لتقبيله في مهـــده.. فأخذ يداعبه بينما أخذت زوجته تمد سفرة الغداء دون أن تتفـــوه بكلمة..

* * * *

علبة العلكة

ارتقت أحلامه سلم عدم المبالاة للوصول إلى سـرداديب العدم حتى تتمكن من حصر الرؤيا المبنية على ملاحظات زمن غابر استقر في قعر التاريخ لتحديد سمة الحالة التي عاشـها منـذ آلاف السنين. إذ علم رغم سنيه العشر أنهم يبحثون عنـه. منـذ أن تم تسجيل اسمه في سجل المواليد في دائرة الصحة التي بدورها قامـت بإبلاغ وزارة الداخلية والسفارات في جميع أنحـاء العـالم بالوافـد الجديد، الذي ظل يصرخ وحيدا منذ مشاهدته للـضوء باحثـاً في كواليس الزمن عن مكان يعود للاختباء فيه.

انطلقت صفارات الإنذار معلنا عن اقتحام طائرات العدو لأجواء بيروت الحالمة ذات الأشلاء المتناثرة من جـراء اغتـصاب مستمر من جهات مشبوهة لجسدها. المعلول الذي أنهكه إصـرار القادم الجديد على أن يكون غذاؤه من ثديها فامتص مع الحليـب

الشرايين. والأوردة.

انطلق يعدو..! .

وعلبة ــ العلكة ــ التي قام بشرائها مؤخراً لم تزل ممتلئة.. إذ لم يهتم أحد بصراخه في الشوارع معلناً عنها. إنهم فقط يقرؤون الصحف إذ لم يعد لديهم وقت لمضغ العلكة.

انطلق يعدو..!

وحبات العلكة تتناثر فوق الرصيف وأزيز الطائرات المغيرة يقترب بينما قذائف المدفعية المضادة تضيء الأجواء تشتعل حبات العلكة اللامعة كالثريات فوق الرصيف الذي أصبح الآن مهجوراً.

تلفت حوله..!

يبحث عن كلمة مواساة في عين حانية.. وإذا بالخوف المطل في الأهداب المقرورة يصفعه بقسوة ليعلن استسلامه لليأس..

إنهم يقتلونه..

تخلى عنه الجميع في ليلة مشابهة. انهالت فيها القذائف من كل صوب وأخذت الطائرات المغيرة تشعل ليل الشتاء القارص.. ثريات.. ونواح.. وأخذ يتذكر نتفاً من أيام عاشها تسلقت زمنه المجدب.. لقد وجد نفسه وحيداً بين مجموعة من الصبية الذين فقدوا المقدرة على النطق.. كان الوحيد الذي يتكلم .. يصرخ في الوجوه بقسوة.

أخذ يتلفت حوله وانفلت خارجاً من المخبأ بعد أن لمح الخوف يقف في وسط المجموعة المتكومة بشكل غريب في ركن قصي من المخبأ.

وقف وحيداً في ركن مترو وصل إليه من خلال محاولة الجميع الوصول إلى أقصى مكان في المخبأ.. بعيداً عن المدخل خوفاً من الشظايا.

كان عدم مبالاة الجميع به دافعاً لمواصلة السير بهدوء إلى المنفذ حيث يطل بصيص من الضوء أخذ من خلاله يتفقد علبة العلكة حاسباً الحبات الباقية ومقدار خسارته. فوجدها أقل من النقود التي دفعها ثمناً للعلبة.. أدخل يديه في جيوبه فإذا بها فارغة.. شعر بالفراغ من جراء ذلك.. تجمد فيه كل شيء. تبلد الإحساس في جسمه فلم يعد يشعر بقدميه اللتين أخذتا تسحبانه إلى المنفذ.. وقد التصقت بظهره عيون الجميع.. أخذت تتابعه بصمت حتى خرج من الملجأ انتصب فوق الرصيف وأخذ يلتقط حبات العلكة المتناثرة بهدوء بعد أن كف عن البكاء لقد كان الصمت المطبق حوله وخلو الشارع من المارة فرحاً جديداً تولد في أعماقه دفعه إلى العدو مرحاً وهو يلتقط حبات العلكة من فوق الرصيف. كان فرحه بأن الأيدي لم تمتد لها فوق الخوف.. والغضب المتناثر حوله. من خلال مواصلة الطائرات المغيرة تحديها للمدفعية المضادة واقتحامها أسوار المدينة لخطف الحياة من فوق جباه غير مبالية

بوجود إنسان.

انطلق سهم ناري، تجاوزه وهو منحن لأخذ حبة أخـــرى من فوق الرصيف. وأخذ يعد الحبات. إنها المرة العـــشرون الـــتي يحاول حصر ما استطاع جمعه. لقد تمكن من تجاوز رأس المال الذي دفعه. وقرر العودة إلى المخبأ..

عاودته الرغبة في البكاء من جديد. وهنا شعر بالخوف عنـــدما وجد الشارع مهجوراً.

وعويل القنابل من حوله يسرق الليل صمته. فأخذ يعدو نحو الملجأ وإذا بسهم ناري آخر يخترق صدره. أخذ الدم ينبثق من جسمه. وتهاوى فوق الرصيف.. لكن هذه المرة كان قد خبأ علبة العلكة في صدره تحت القميص . خوفاً من تناثرها مجدداً حـــتى لا يفقد رأس المال فيعود للاستجداء من جديد.

* * * *

جراح ليلة فرح

أخذ يبحث عنها على الشاطئ متذكراً مواقف كانت مترسبة في أعماقه منذ ثلاثين عاماً.

كان في السادسة من عمره يلعب (البرجوه) و(الكبوش) و(الليري) لم يصل بعد لمرحلة لعب (الكرة) مع أبناء الحارة في (الزقاق) الرملي حيث كانت الكرة في أغلب الأحيان تقع فوق سطوح المنازل الطينية ذات الدور الواحد أو الدورين فيسارع إلى تسلق أعمدة الكهرباء في غفلة عن عيون الرقيب.

* * *

(عائشة) تكبره بثلاثة أعوام تسابقه نحو البحر لمراهنته على الغطس والبحث عن قطعة النقود التي يقومان برميها في اليم. إن وجهها ينبثق من الماء كل مساء معلناً عن قدومها.

* * *

دار الحديث عن رجل قدم من الشمال يمت لهم بصلة قرابة بعيدة يرغب في الزواج. عرف ذلك من خلال الأحاديث المبهمة التي استمع لها أثناء جلوسه في مجلس الضيوف بين يدي والده بعد صلاة المغرب ولم يثره كثرة اهتزاز رأس والده الذي كان يعني الموافقة على كل كلمة تقال. وفجأة إذ بالدار تعيش حركة جديدة والنواح يملأ المكان..

كانت تبكى.. لا يدري لماذا.

إنما كان يتسلل كل مساء إلى الغرفة التي قامت والدته بإغلاقها عن العيون لينام فوق الحاجيات التي يتم جلبها من السوق.

النواح شديد، رغم محاولة كتمه، وصوت جلبة حيث انزوى. ففرك عينيه بقسوة. كانت تقاوم وتلفت حوله. تذكر أنه في الدار فشل الموقف صوته.

شعر أنه بحاجة إلى البكاء. فأخذت دموعه تنداح فوق وجنتيه بصمت..

مر الوقت بطيئاً لا يدري مقداره أو ماهيته وانتصب شيخ وتحرك نحو الباب. رفع رأسه في ظلام الغرفة الذي تسرب إليه شعاع النور من الباب الموارب.

* * *

منذ ثلاثين عاماً.. وهاهو يعود بعد غربة دامت عشرين

سنة في دنيا بعيدة لا يدري كيف، إنما كانت هناك (سفينة) ترسو في الميناء احتوته في أحشائها ذات مساء بدعوى مرافقة والده في رحلة عمل ، تم عرضه فيها على مجموعة من الأطباء لفحص حالة الهستريا التي تنتابه أثناء النوم.. حيث ينهض مفزوعاً وقد جحظت عيناه وشلت أطرافه.

تغير كل شيء ما عدا تلك الحالة وإن أصبحت نادرة. حيث أخذته الحياة بمشاغلها فلم يعد يطفو ما في الأعماق وإن كان في بعض الأمسيات يأتي إلى الشاطئ بعربته يناجي وجهها. فيأخذه لعب الأطفال وقهقهات مرتادي الشاطئ.

ـــ إنني أخشى ذلك..

ـــ إنني أحبك..

ـــ سوف يرضى بالواقع.

ـــ لا أستطيع.

ـــ إنما فرصتنا الأخيرة .. حتى ندفعه إلى الموافقة.

استمع عنوة إلى الحديث. فأخذ يراقب الاثنين تابعهما بصمت حتى رجعا لعربتهما. ولحقهما بعربته أنهما يسابقان الزمن. واختفى الاثنان في الزحام.

جن جنونه وعاد إلى الشاطئ. فأخذ يركل الماء بقدميه في قسوة محاولاً إهالة التراب على الموج. كان وجهها هذه المرة يبكي ليس كعادته كل مساء يناجيه يحدثه. . إنما دموعها فوق وجنتيها

وشعرها أشعث وأطرافها باردة. وتقدم من الموج. دخل البحر بملابسه بين ضحكات المرتادين وصراخ الأطفال الذين انتشلوه من الحالة التي يعيشها فعاد إلى العربة وتناول بعض الأقراص الطبية المهدئة وألقى برأسه فوق المقود وذهب في سبات عميق.

* * *

تكوم حوله إخوته وبعض العاملين في المؤسسة التجارية التي أسسها حال وصوله بالتعاون مع بعض أصحاب المصانع والمؤسسات المصدرة حيث كان يعالج من الصرع. فلم يهتم بقلقهم. وأخذ يستغرب خوفهم عليه.

* * *

أرسل باقة ورد مع بطاقة تشعرها بمعرفته أن زوجها مسافر. طفت صورة (عائشة) التي ماتت أثناء غيابه إلى السطح. وتذكر تلك الليلة وتذكر زوجها الذي لم يحاول أن يلتقي به منذ أن عاد. فأخذ يسأل عنه لمعرفة كل شيء عنه.

ـ هل وصلت البطاقة.

ـ أجل.

ـ أرجو أن.. أفوز برضاك.

لم ترد على رجائه واستمر الحديث طويلاً في أشياء مهمة منذ قرر شيئاً في أعماقه.

محاولة ناجحة. دفعته إلى الاستمرار في تنفيذها مع كل

سيدة تربطها بزوج عائشة روابط أسرية أو اجتماعية.

وفي الموعد المحدد كان يقف بعربته في عرض الطريق. وإذا بها تسرع إليه غير مبالية بالعربات المارة. وإذا بإحداهن تداهمها فقفز فزعاً من مقعده وأخذ يعدو نحوها وشق لنفسه طريقاً بين المتجمعين حولها.

انحنى فوقها أخذ يتأمل وجهها الذي انزاح عنه الغطاء فمرر كفيه على وجنتيها. وتأمل شعرها المتشعث والدم ينبثق من أطرافها الباردة.

سحب عباءتها فوقها.. وأخذ يبكي عند قدميها.

* * * *

السّاعة الحادية عشر

الأضواء تملأ المدينة. وأصوات العربات تزعج المارة. حتى الأطفال في أسرتهم يصلهم كل ما يدور في الخارج رغم النوافذ المغلقة. عليّ أن أسرع في الخطي فالساعة تشير إلى الحادية عشرة ليلاً والطريق طويل. غريبا يتجول وحيداً. بعيداً عن غرفته التي يأوي إليها كل مساء في الساعة الثامنة تاركاً كل معاناته خلف الباب.

من أجل معاناة أخرى.

أخذت أحدث ظلي الذي يمشي معي مرة متقدماً وأخرى على جانبي الأيمن، ومرة خلفي وأحياناً على الجانب الأيسر. كنت أتلفت باحثاً عنه عندما أنسى في أي جانب يسير. وأضحك من الخواطر التي أخذت تنثال معلنة عن نفسها لمعرفة سبب هذا الاغتراب الذي لا داعي له في ظل الحياة التي أعيشها والتي تعني الاستكانة إلى حد التخاذل.

كانت (بنان) ــ صورة باهتة عن المرأة التي أبحث عنها.. وقفت ذات يوم في الطريق الذي أجتازه يومياً إلى مقر العمل لمشاركتي الطريق. كانت غير مبالية بما يقال:

ــ لماذا لا تشرب عندي فنجان قهوة.؟

ــ ليس لدي مانع.

ــ إذاً لن تتأخر.؟

ترددت كثيراً ومع ذلك شربت فنجان القهوة ليكون مرحلة جديدة أخذت تسم أيامي القادمة.

تطلعت في ساعتي. مازالت كما هي الحادية عشرة والأضواء تؤكد أن الطريق طويل. وسيارات الأجرة.. والخاصة.. وحافلات النقل تجتازني غير مبالية بالرجل الوحيد الذي أخذت الرياح تعبث بغترته وثوبه. مفضلاً السير فوق الأرصفة متلفتاً حوله لعله يجد في الوجوه الراكضة وجهاً يعرفه.. وقد تخيل الجميع يعرفونه لكن أحداً منهم لم يحاول.. إجلالاً وتقديراً، تعكير لحظات زاهد يتبتل في محراب المشي على قدميه.

هكذا توهمت، فبحت بذلك لظلي الذي كان في هذه اللحظات يسير معي من الجانب الأيسر. انحرفت يميناً وتوقفت قليلاً قبل أن ألج أحد الشوارع التي توصلني إلى مقصدي.

وشدني طفل في الرابعة من عمره أطل صارخاً في وجهي من نافذة سيارة تقف أمام أحد المتاجر.

ــ أين أبي..؟

..... ـــ

ـــ أين اختفى ؟

لم أبال بذلك.. وإن تذكرت بكاء طفلة أحد الأصـــدقاء كانت معنا في عربته، ثم نزلنا لمشاهدة إحدى الـــدور المعروضـــة للإيجار، فلم نبال بها. وبعد غياب ساعة تقريباً وجدناها خائفة تدفن نفسها تحت المقعد الأمام وهي تبكي بدموع غزيرة أثارت حزني .

كان علي أن أبحث عن مقهى لشرب فنجان من الـــشاي وطلب ـــ شيشة ـــ إذ قصرت الطريق وتطلعت في ســـاعتي: إنهـــا الحادية عشرة. إنني أنثال من الداخل وبنان تعيش الآن بـــين يديـــه لقد حدثتني عبر الهاتف منذ ثلاثة أيام بتعرفها على شـــخص آخـــر تقدم لخطبتها وها هي اليوم تذكر لي اسماً جديداً.

ماذا تريد من كل هذا؟ هل تطلب مني العـــودة وطـــرد مرحلة الغضب. وأنا الذي هرب. وفضل هذه الحالة هـــارب مـــن أشياء كنت أحدها.. أحضر نادل المقهى كأساً من الـــشاي أولاً ثم أحضر الشيشة ـــ وأخذت أتأمل سحن المرتادين وفي داخلي صوت ملعون يحاول شنق اللحظات التي أعيشها بتذكيري بوحدتي، مـــن خلال المجموعات المتناثرة في المقهى.

تأملت ساعتي مجددا، وأنا أستعيد بقية الريالات العـــشرة من نادل المقهى. وأخذت أواصل طريقي بينما ظلي يسير أمـــامي حيث أن أضواء المقهى كانت من القوة بحيث تغلبت على أضـــواء

أعمدة النور في الشارع وفجأة تلاشى ظلي. أخذت أبحث عنه لأواصل حديثي معه وظهر مرسوماً فوق الجدران التي أمر بها على يميني. الرصيف خال من المارة والسيارات مزروعة في كل مكان.

ـــ غسان.. غسان..

تلفت حولي أبحث عن مصدر الصوت الذي أخذ يتكرر .

وتذكرت أنه اسمي فتوقفت عن السير وأنا أبحث عن مصدر الصوت كانت تضحك داخل عربة صغيرة.

ـــ إلى أين؟

ـــ لا أدري..

ـــ منذ متى وأنت تسير..!

ـــ لا أدري .. آه تذكرت منذ ثلاث ساعات.

وتطلعت في ساعتي.

ـــ شكراً.

وهممت بمواصلة السير فقفزت من مكانها من العربة ولحقت بي وأمسكت بيدي وأخذت تدفعني إلى العربة التي لم يكن بها سواها. وأجلستني في المقعد الذي تجلس فيه ثم أغلقت الباب ووقفت فوق الرصيف وقد انحنت حتى تستطيع تأملي وهي تحدثني وارتسمت الحيرة أمام ناظري وأنا أبحث عن اسمها وهي تعرف كل شيء. ثم تركتني ودخلت البقالة التي تقف أمامها العربة.

ـــ من أنت؟

صوت أجش يسألني عن اسمي وسبب جلوسي في العربة. أخذني الموقف ولكني شعرت بقوة تأخذني إلى أعلى ثم انفتح بـــاب العربة.. ولفظتني إلى الرصيف ثم انطلقت بسرعة. البـــاب مغلـــق ولافتة صغيرة معلقة وراء الباب الزجاجي تنبئ بأن المحـــل مغلـــق. تطلعت في ساعتي.. وواصلت السير إلى المكان الذي آوى إليه. لم يبق سوى خطوات.

ها هو كشك هاتف العملة المنصوب أمام بـــاب البنايـــة يعلن عن النهاية وزحف السيارات المارة يقلص خواطري والهواء ما زال يعبث بغترتي لكن كل الخطوات توقفت وأنا ألمح باب البنايـــة التي أقيم في إحدى غرفها مغلقاً. تأملت الساعة وإذا بها ما زالـــت الحادية عشرة. ماذا يعني هذا؟ أين ذهب البواب؟ وأخذت أتلفـــت حولي.

ـــ لماذا الباب مغلق؟

سؤال وجهته إلى شخص أطل من إحـــدى النوافـــذ. لا أدري هل أحس بحرجي فأطل أم أنه كان يتأملني منذ قدمت مـــن آخر الشارع؟

ـــ إنها الواحدة بعد منتصف الليل.

تأملت الساعة طويلاً فإذا بعقار بها واقفة.. لم تتحرك منذ تأملتها أول مرة وعدت القهقرى. ولكن إلى عربتي التي تقف أمـــام البناية. لأتمدد فوق مقاعدها حتى الصباح.

* * * *

السُّلَّم

الهاجس تضخم.. أصبح عملاقاً ظلاله فوق كل شـــيء ومع ذلك لم يتم سحق الحزن المتمركـــز في أعماقـــه منـــذ آلاف السنين.. أخذ يلتهم الكتب التي اقتناها مؤخراً، في ظـــرف ســـاعة ونصف التهم مجموعة قصص ومجموعتين من الشعر ذات الحجـــم الصغير، وثلاث قصص من مجموعة أخرى.

أدار مؤشر المذياع باحثاً عن صوت يعرفه يـــأنس بـــه في وحدته ومع ذلك كان القرف من كل ما في المذياع من أصـــوات يدعوه إلى الهرب إلى النوم.. أو إلى (بلكونة) الغرفة التي يـــسكنها وحيداً مع لحظة الهروب التي قررها.

ـــ أخشى أن يكون سفرك هرباً!.

ـــ أبداً..؟

ـــ إذاً اكتب لي رسالة تشرح فيها حالك..

ـــ لا أستطيع ..!

في الأسبوع الأول من رحيله، قرر أن يبتعد، ومع ذلـــك ما أن وصل (جدة) حتى أسرع إلى صندوق هاتف العملة. وأخبرها بأنه تجول في المدينة حتى الساعة الثامنة والعشرين يبحـــث عنـــها. وأخذت تضحك، كانت جذلة باتصاله. وكان ـــ هـــو ـــ أيـــضاً مسروراً بذلك. عرف ـــ أنه ـــ لا يستطيع مغادرتها رغـــم كـــل الموانع...

تذكر البدايات..

وتذكر اللحظات التي كان يستسلم فيها للهاتف يـــصله صوتها الشاكي من قسوة الحياة. كانت تبكي لبكائه. وتحـــاول أن تساعده في اجتياز الصعاب. كما كان يواسيها في شكواها يتمنى لها النجاح في حياتها وأن تعتبره صديقاً محباً يساعدها في الوصـــول إلى الهدف الذي تصبو إليه وتبحث عنه.

تذكر كل هذا ..

وحاول أن يقول شيئاً. ولكن مرحلة القلـــق والتزيـــف المترسبين في أعماقه يشلان كل صور الحياة..

نهض من مكانه في ركن الغرفة وألقى بالمجموعة القصصية التي بين يديه جانباً واتجه إلى (بلكونة) الغرفة.

قد تكون المرة الألف..

ولكن في هذه اللحظة تأمل الفضاء من الدور الخـــامس،

وقد شع الشارع بالأضواء وامتد على مد النظر خط طويل من الأضواء الصفراء أطول من المتوقع. كما تناثرت كاشفات ذات أضواء باهرة في أماكن متفرقة من المدينة. بينما أبواق العربات المارة من تحت العمارة التي يطل من ــ بلكونتها ــ على امتداد الشارع تحاول لفت نظره إلى ما تحمل من جنسيات مختلفة وأفكار وحشية وحكايات قد تكون مضيئة وقد تكون منغلقة مثل الحالة التي يعيشها هذه اللحظات.

استرعى انتباهه وقوف عربة أحد أصدقائه أمام باب العمارة المجاورة لسكناه. وتخيله دخل عليه من باب الغرفة الموارب. ثم دفعه من فوق سياج ــ البلكونة ــ وأخذ يتخيل جسده في الهواء في طريقه إلى الارتطام بالإسفلت. هل في إمكانه أن يكور جسمه كالبهلوان ويخفف من واقع الارتطام ويستمر في الحياة. أم لا يتمكن من ذلك وتكون النهاية؟ وهنا أخذ يترصد الباب خشية أن يتمكن صديقه منه وينفذ ما جاشت به أفكاره.

ــ إبراهيم.. إني أبحث عنك منذ أسابيع ثلاثة..!

وكذب .. ادعى ــ أنه ــ اتصل أكثر من مرة كان الهاتف فيها مشغولاً ثم اتصل بشقيقة أحمد وطلب منه أن يخبرها بذلك وحدد أكثر من موعد لمعاودة الاتصال لكنه يجد الهاتف مشغولاً.

ــ لقد بلغني بذلك وحضرت ..!

ـــ لكن لم أتمكن من الاتصال.

وهنا وهو يستعيد بعض ما مر به من أحداث مع ـــ إيمان ـــ إذا بصديقه يخرج من باب العمارة المجاورة وقبل أن يفتح بـــاب العربة خرجت إيمان من العمارة ووقفت أمام باب العربة الآخـــر. كانت هي، لا يدري ماذا أتى بها إلى جدة ـــ وهي التي اعتـــذرت عن مشاركته غربته. ارتدى ثوبه فوق سروال البيجاما وأسرع إلى مصعد العمارة وما أن خرج من الباب الخـــارجي حـــتى غـــادرت العربة مكانها إنما استطاع التأكد من شخصية الاثنين.

ـــ آلو .. آلو .

ـــ نعم ...

ـــ إبراهيم.

ـــ أهلاً منذ زمن لم تتصل..؟

كانت المجيبة على الهاتف ـــ إيمان ـــ وتذكر أنـــه يـــشعر برابط قوي يشده إليها. ولكن كيف يستطيع العيش لهـــا وهـــو لا يستطيع تحديد خطواته، رغم استعدادها للتضحية بكل شيء مـــن أجله. وتذكر من خلال انثيال الأفكار أنه ترك غرفته مفتوحـــة .. والمذياع مفتوحاً .. فأهمل المصعد وأخذ يعد درجات السلم الذي تطاول إلى عنان السماء في محاولة للعودة إلى غرفته.

* * * *

رباط لا يعني شيئاً

انتظر كثيراً هذه المحصلة التي وصل إليها. كانت كل المواقف التي عاشها صوراً باهتة تلاشت معالمها في الزحام بحيث غدت عند تذكره لها سقماً جعله يهتز من أخمص قدميه حتى مفرق رأسه.

كرر النظر في المرآة وهو يستعد لحلق ذقنه بعد ثلاثة أيام من الترقب المجحف.

[1]

أربعون عاماً من الأوهام والخيالات المشنوقة فوق صليب الوطن الذي هام حباً به. محصلتها شعرات من الشيب.

[2]

أربعون عاماً عاشها غير مبالٍ، في حركة وجود فوضوية كان فيها في معظم الحالات في جانب السالب. فرحه نادر وإحساسه بالحياة موءود. يعيش الضياع في أبشع صوره.

راسماً في مخيلته صوراً أسطورية لحياة ما قبل التاريخ مع شخوص وهمية أحياناً يخالطها الجن والعفاريت التي كثيراً ما يلتقي بها في زوايا المدينة. وفي المقاهي التي يرتادها. أثناء لحظة هروب من القرف الذي كانه الجميع.

[3]

أربعون عاماً محصلته منها هذا الشيب الذي غزا رأسه وأقوال غريبة ما زالت تشاركه أيامه هي وهم كبير. باحت به شفاه عجائز المدينة.

ـ والدك رجل شجاع.

ـ .....

ـ يتخيل لي أنك لا تعرفه... لقد توفي وأنت في الثانية.

ـ أجل ..!

ـ لك ثلاثة أخوة..؟

ـ نعم ..!

ـ هل ما زالت المزرعة كما كانت ..؟

كانت الأقاويل وهذا الشيب الذي يطل بعنف من خلال المرآة هي باقي أيامه القادمة. والتي قرر الآن أن يتعامل معها من خلال الشيب.

[4]

أربعون عاماً عجافاً. من غير امرأة تشاركه فراشه أو طفل يزعج وحدته. كانت الفرصة متاحة ذات يوم. أما الآن فقد غدا كل شيء هباءً.

استلقى في فراشه. وأخذ يعد على أصابع يده الأيام الباقية من الشهر.

كانت الإجازة طويلة ثلاثة أشهر. عندما واجهته أول مشكلة حقيقية لم يستطع من خلال الحوار الدائر أن يدافع عن نفسه.

ـــ لقد كنت عندها تلك الليلة..

ـــ أي ليلة..

ـــ الليلة التي توفي فيها زوجها على سلم الدار.

لقد كان زوجها مسافراً في مهمة عمل. وفي الصباح وجده الجميع مستلقياً أمام باب العمارة وقد تصلبت أطرافه. مات بالسكتة القلبية.

[5]

غادر الإدارة في إجازة لمدة ثلاثة أشهر. وها هـــو يعـــد الأيام الباقية من الإجازة. والتي اختفى فيها عن عيون الجميع. إنهم يقتلونه بأسئلتهم. عن لحظة هروب شارك فيهـــا امـــرأة موبـــوء فراشها.

[6]

أربعون عاماً.. فحص شعراته البيضاء وهو يتأمل المـــرآة ثم أخذ يفرز الشعرات واحدة واحدة. وأمسك بشعرة اجتثها مـــن مكانها وعندما قربها من ناظريه. كانت شعره سوداء.

أخذ يضحك ثم غادر مكانه.. واتجه إلى الباب الخارجي .

* * * *

قالت إنها قادمة

[1]

كان القدوم متأخراً جداً، لذلك زرعت الحالة في مقلتيه دمعة كبيرة انساحت فوق وجنتيه .

لم يحاول مسحها ولم يهتم بالاندهاش الذي أنزرع في عيون من حوله إنها قادمة. قالت ذلك منذ ثلاثة أيام فقط. فرح كثيراً. لم يكن يتوقع أنه سوف يرفض كل أيامه الراحلة والتي لا يتذكر منها سوى أن العام ثلاثمائة واثنان وخمسون يوماً. وإن العام أيضاً اثنا عشر شهراً والشهر ثلاثون يوماً، والأسبوع سبعة أيام ثابتة ثبات الانسحاق المزروع في أعماقه منذ أول يوم أطل فيه على هذا العالم.

[2]

قالت إنها قادمة. قالت ذلك منذ ثلاثة أيام فقط. أجل ثلاثة أيام ولكن هل حقاً هي قادمة. ماذا تريد منه أنه شيء بال، انتهى منذ خمسين عاماً. وسوف تتراكم أعوام الانتهاء. حتى تصل النهاية الأخيرة..

تلفت حوله.. تذكر صباه. طفولته البائسة، وطريق المدرسة الرملي وقدمه الحافية.. ثيابه المهلهلة.. زوج أمه الذي لا يعرف شيئاً سوى أهل زوجته السابقة ومقدار اعتزازهم باحترامه لهم، حتى لو كان ذلك ضياع زوجته الثانية وأبنائها من زوجها الأول.

[3]

احترقت المراحل في داخله. إنها ثلاثة أيام وهي في طريق الآتي. دقت الأبواب.. فانساحت جميع الأقفال . ومع ذلك أجهش بالبكاء لا يدري ماذا يقول..

(إنني أقف وحيدة. لا أحد يهتم بي. أبي أيضاً لا يعي أن لي دوراً وأنني كيان من لحم ودم، لي مشاعري.. وأحاسيسي. لي مقدرتي في أن أقول لا.. بكل ما في أعماقي من مقدرة).

وتذكر أنه لم يقل في حياته ــ لا ــ كان عليه أن يذهب إلى المدرسة حافي القدمين.. أن يترك الدراسة.. أن ينتقل من

مدرسة إلى أخرى .. أن يبحث لذاته عن وظيفة.. أن يتزوج .. أن يتنازل عن كل شيء.. وذلك من خلال ــ نعم ــ التي انسحبت على أيامه منذ مليون عام. دون أن يعترضها مانع. حتى انهيال الصخور في طريق الأبدية كان يترقب مروره، ثم يغلق الدرب حتى لا يشاركه الآخرون خوفه.

(ذات يوم وجدت والدتي صورته معي. أقامت الدنيا ولم تقعدها. قررت إحراقي بمنعي من الذهاب إلى المدرسة. أغلقت جميع الأبواب في وجهي، حتى وأنا قادمة إليك كانت تأتي معي).

[4]

كان الخوف.. مصلوباً فوق الأشجار التي أمر بها، ينذرني بأن التعب أخذ يسري في جسمي كما تسري العثة في الثوب البالي. وأن عليّ أن أتوقف لأسترد أنفاسي. لكن صراخهم يصم أذني، يحرق توقفي، يحرق الأرض تحت قدمي لأحث السير..

(البارحة أخذت أقلب كتبي وأوراقي تذكرت أني كنت أكتب أشياء لنفسي وأخذت أقرأ. وشاهدتني والدتي أبكي وحيدة في فراشي. فأخذت تتأملني بحزن موقوف ثم ضمتني إلى صدرها وشاركتني البكاء).

أنا لم يشاركني أحد البكاء. تذكرت ذلك .. وصلتني برقية بأن إحدى أخواتي دهمتها سيارة وهي عائدة من المدرسة.

تركت عملي.. خرجت لا ألوي على شـــيء وإذا بي في موقف السيارات. لم تكن في عيني دمعة واحدة إنما قلبي كان يبكي، وركبت عربة أجرة متجهة إليك. كان بجواري شخصان في المقعد الخلفي أحدهما قدم من وراء البحار للعمل والثاني لزيارة أسرته.

كان الطريق طويلاً .. ونحن نجتازه اختفـــت الـــشمس، تسرب الظلام إلى العربة التي تسير وحيدة وإذا بيد الثاني تتـــسلل تبحث عن شيء لا أدري ما هو. لم أقل ــ لا ــ صمت.. قـــررت أن أتجاوز المحاولة.

(أخذت والدتي تهتم أخيراً بي. سمحـــت لي بـــالعودة إلى المدرسة ... ذهبت معي واعتذرت عن سبب غيابي. قررت أن تمد لي يد العون).

أصبحت تلك الرحلة شيئاً وهمياً لأنني كلمـــا تـــذكرتها أشعر بالحزن والاشمئزاز في الوقت ذاته. إذ إنه ما أن وصلت العربة حتى ترجلت منها هارباً.. وأخذت أبكي وأنا أبحـــث عنـــها بـــين المستقبلين .. كانت أجملهم.

وكانت أقرب الجميع إلى نفسي.. ولم يشاركني أي وجـــه من المستقبلين البكاء فقط كنت الوحيد الذي يبكي. حـــتى وأنـــا أستقبل رفاقي السابقين الذين علموا بمقدمي. وكانـــت الـــسلوى الوحيدة أن أعود من حيث أتيت لأكون غريباً..

(تزوجت أختي. لم يبق غيري في الدار. سوف يزوجوني في

يوم قادم).

[5]

قالت إنها قادمة. قالت ذلك منذ ثلاثة أيام. وتذكر أنه لا يستطيع عمل شيء.

* * * *

انتماء آخر لمرحلة متقدمة

[1]

توقف عن الغناء. تذكر أنه لم يعد وحيداً وأن الإشارة الحمراء أوقفت عدداً كبيراً من العربات وأن أصحابها قد يعتبرونه معتوهاً أو فاقداً للشعور.

تحول الضوء الأحمر في إشارة الطريق إلى الأخضر وحاول أن يكون انطلاقه هادئاً ذا ميزة خاصة، ولكن محاولته تعثرت عند أول محاولة لكثرة العربات والسابلة... فانصب تركيزه على أن يضايق عربة تجاوزته وكاد يرتطم بها توقفت الآن أمامه..

عند إشارة طريق أخرى حمراء ..

قرر الترجل من العربة والتوجه إلى العربة الأخرى غير أن مرحلة التفكير لم تصل إلى أن يترجل من العربة ويتجه إلى هناك ثم يمسك بخناق الرجل.. وينهال عليه صفعاً ولكماً..

قد يتدخل رجل السير..

وقد يتدخل أهل الخير .. ويذكرونه أنه كان يغني بصوت عال عند إشارة السير السابقة.

وينقسم الحضور إلى جبهتين.. الأولى تقول إنه فاقد الشعور.. والأخرى تقول إنه مجنون.. وفي النهاية تأخذه عربة الشرطة إلى المستشفى للتأكد من حالته..

وهنا سوف تتداعي الأحداث.. وقد تسير في غير صالحه بدعوى الصالح العام..

[2]

انتظر أمام الباب كثيراً، ويده على مفتاح الجرس الذي أخذ يعلن عن قدومه.. لكن لا أحد يرد.. الأضواء مشتعلة بالداخل .. لكن الهدوء مسيطر على كل شيء..

كان منذ زمن انقضى يجد أطفاله ينتظرونه بشوق أمام الباب.. يترقبون عودته، وإذا سمعوا صوت منبه عربته يتسابقون إلى فتح الباب والتعلق برقبته ومطالبته بالمصروف.. وحمل ما بين يديه من أشياء. أما الآن فلم يعد هناك أحد ..

إنه يعلم أنه لا يوجد أحد ولكن إلى أين يذهب.. إنه يخشى فتح الباب والدخول إلى الدار الخالي..

لقد غادرها الجميع..

إلى غير رجعة..

إنهم يطالبونه بالعودة عن خطئه.

[3]

حتى أنت يا والدتي تطردينني.. إنني ابنك البكر والقائم على شؤونك .. لماذا كل هذا؟.. لست أول من يتزوج امرأة أخرى على زوجته.. هل نسيت والدي؟. لقد غادرنا أطفالا لا نعيي ما حولنا.. وهاجر دون أن يدرك مسؤولية وجود أطفال وعندما غدونا رجالاً عاد مع زوجة أخرى .. وأطفال آخرين هم أخواني الآن وأنا المسئول عن استمرار وجودهم حتى يعرفوا طريقهم..

لقد عرفت معنى وجود المرأة الثانية.. لذا كنت أتوقع ترحيبك وأنت تدركين مقدار معاناتي منها ..

وحرصي .. على استمرار حياتنا من أجل أطفالي، ولكن كان عليّ أن أهرب من الجحيم الذي أنا فيه..

[4]

ساهرة.. لقد وجدت فيك كل الأشياء التي فقدتها .. إن سكن إخواني ووالدتهم بالقرب من داركم دليل على أن الحظ بدأ يبتسم لي.. ساهرة إنني أجد في هذه اللحظات التي أجدك فيها نعيم

الدنيا.. والجنة الموعودة.. لن أفر منها كما فر آدم ..

فأنت .. من أختار وأنت من تختارين، وهنا لـــن يكـــون لاختيارنا خيار. إذ إنه الوجود:

ساهرة هل تتزوجينني..؟

أجل .. علينا أن نفكر..

وقرر أن يفكر، لكن أوصله تفكـــيره إلى تحطـــيم كـــل الأسوار التي تقف أمامه، ولم يجد غير ســـاهرة، ولكـــن ترددهـــا وشعورها بالذنب يؤخر الرد..

وفي لحظة لقاء غرس أنيابه في كتفها وأخذ يمتص دمهـــا وانهارت مقاومتها وغابت عن الوجود لا تدري مـــاذا حـــدث.. وعندما عادت إلى وعيها سمعتهم يقولون إنها أصـــبحت زوجتـــه ولولاه لما تم إنقاذها من الموت .. فاستسلمت لواقعها الجديد رغـــم أنها كانت مخطوبة منذ الصغر لأحد أبناء عمومتها.

[5]

عاد إلى عربته.. بعد أن تجاوز باب والدته الملاصق لسكنه وقبل أن يدير محرك العربة انحدرت فوق خده دمعة كـــبيرة شـــعر بحرارتها فوق وجنتيه..

سحب منديلاً من علبة المناديل ومسح الدمعة ثم رمى به من نافذة العربة وانطلق بعيداً. خارج المدينة.. الطريق طويلا يتلوى

مثل ثعبان عمره أكثر من قرن.. وأطلت أضواء مقاهي ومطـــاعم على جانب الطريق.. أخذت الأضواء تقترب ومع ذلك تملمـــل في مقعده.. إنه يتمنى الوصول .. إنها قريبة.. والإسفلت ما زال يتلوى .. يعلن عماً تبقى من مسافة..

طال الوقت واستغرق في سبات عميق .. وهو يغـــني .. إحدى أغانيه المفضلة لطلال مداح وقد تسرب إلى داخله شـــعور مفرح يعلن عن قدوم الفرج الآتي الذي افتقده منذ الطفولة.

* * * *

الاختيار

انهالت الرؤى من كل ناحية معلنة عن ساعة الصفر الـــتي جرى فيها إعدام تلك الحالة الميئوس من شفائها.

كان مجلس العائلة أشبه بلجنة من الأطباء المهـــرة إذ تم في جلسة واحدة تشخيص المرض وإصدار القرار. لم يكن هناك تحفظ من أحد. إذ إنه تم رفع أصابع الجميع معلنين الموافقة بشكل جماعي لم يسبق له مثيل.

وفي ثوانٍ..

فتح الباب. ودعوها للدخول حتى تسمع الحكم الـــصادر بحقها. دخلت بخطوات ثابتة وفوق جبينها مسحة حزن طارئ قـــد يكون مصدره الموقف.. وقد يكون لشعور داخلي قرر أن يطفـــو على السطح.

ـــ لقد قرر الجميع الرفض.

ـــ لقد كنت تعلمين مسبقاً بذلك ومع ذلـــك جـــاوزت الأعراف.

ـــ كيف؟

ـــ لقد أعلنت الحب لشخص لا يستطيع أن يحدد أهدافه بالإضافة إلى أنه مجهول النسب.

ـــ ولكن.

ـــ الأمر لا يحتاج إلى مناقشة.

ـــ ولكنه سوف يطالب بدمي الذي أهدرتموه..

ـــ بصفته ماذا.؟

ـــ بصفته زوجي ..

ران الذهول على المجلس. وانسلت بهدوء وغادرت الدار ثم اختفت من المدينة لا أحد يدري أين رحلت. بينما كانت تعيش سعادتها في كنف زوجها ومواصلتها لدراســتها الجامعيــة حيــث وجدت في الطريق المفروش بالسعادة من يدفعها إلى ذلــك حــتى تنسى همومها وما قاسته من أسرة والدها التي كفلتها بعــد وفــاة والدتها ولم يسأل عنها. كل ما تعرفه عنه هي صوره التي تصل من خارج الحدود والرسائل النقدية التي تــصل باسمهــا كمــصروف لمواجهة الحياة.

تخرجت من كلية الطب ووجدت أن رغبتها تتفــق مــع رغبة زوجها للعودة إلى مدينتهم القديمة.

وعملت بالمستشفى العام. لم يحاول أحد البحث عنها ولم تحاول الاتصال بأحد.

مرت الأيام غريبة غرابة الأحداث التي تلوثها. قدمت من خلالها البسمة الأولى (حنان) والبسمة الثانية (عاطف).

وهنا تذكرت والدها .. لم تتذكر .. أحداً غيره .

وبينما هي تتجول بين المريضات في الأقسام الداخلية برفقه أحد الأطباء، اختلست النظر إلى أوراق كانت بين يديه رمى بها جانباً وأخذ يشاركها في تشخيص مرض مريضه. عجوز أخذت تئن بشكل محزن. تسمر نظرها على الاسم انه اسمها. وخطفت الأوراق الأمر الذي أثار انتباه زميلها وأخذ يشرح لها وهما في ممرات المستشفى حالة المريض وأصرت على مرافقته لمشاهدته وتذكرت الصور وإيصالات النقود المحولة..

وانداحت دمعة صغيرة فوق خدها وهي تمد يدها لجس نبض المريض الذي ما أن فتح عينيه حتى همس بصمت..

ـ كيف حالك يا ابنتي.

وانكبت عليه تلثمه أمام المرضى غير عابئة بنظرات الجميع وهي تبكي بشكل لم يكن له مثيل في حياتها. وتذكرت مقعده الخالي في مجلس الأسرة منذ أن أدركت الحياة وشعرت أنه قدم متأخراً ولكن ليكون لحياتها معنى بوجوده.

* * * *

احتضار زمن الوداعة

الزمن غير موجود إذ إنه تلاشى منذ وقت غير معروف. لا أحد يعي الحالة التي كانت عليها البلاد في ذلك الزمن المدفون تحت ركام وقت آسن أخذت الأحداث بـ ـ أذنه ـ إلى هاوي الندم.

عصام.. صورة زمنية لوحدات غير مترابطة وجد نفسه داخل اللهب لا يدري كيف وصل..

إذ أن كل ما يعلمه أنه استلم خطاباً بالبريد المضمون يدعوه للحضور..

الوقت بالنسبة له كان غريباً.

بحيث لا يميز بين صفارات الإنذار من غارات جوبه للعدو ومنبهات العربات.

أو صفارات حراس الليل في مدينته التي تقبع منذ بدء

التاريخ على الطرف الشرقي من سلسلة جبال السروات.

عصام..

احتل مساحة كبيرة من قلبها الذي يحتلـــه عديـــد مـــن الرجال .. كلهم يخطب ودها..

يتقرب إليها . وكان عصام منهم.

غير أن نداء الوطن أضخم من جميع الاحتمالات.

ـــ غداً أسافر.

ـــ لماذا لا تبقي أسبوعاً آخر فقط؟

ـــ لا أستطيع .. إنهم ينتظرونني .. على أحر من الجمر.

لم ينس أن يعطيها عنوانه.. وأن يتعهد بمراسلتها ولو مـــن خلال التهنئة بالأعياد.

عيد ميلادها ..

عيد رأس السنة.

وبقية الأعياد.. التي تمر كل عام.. بدون كلـــل . كـــان وفياً.

* * *

تماضر.. احتل الفراغ مساحات قلبها .. فلم تعد تعي ما يدور حولها. أحست أنها مرتبطة به. وارتباطها هذا أفقد الأشـــياء طعمها ولونها فأخذت لهجة رسائلها تتغير .

غدت شعلة من العواطف تتحدث عن ثوب الذكريات .

أيام جامعة بيروت العربيـــة .الـــشاطئ. .. الروشـــة .. الجبل.. أشياء كثيرة .

دفعته إلى تأجيل عقد قرانه بابنة عمه.. وإصراره على أن يكون الزواج بعد أن يتم تحقيق ولو جزء بـــسيط مـــن أحلامـــه وطموحاته من خلال تكوين مكتبه التجاري الذي قـــام بافتتاحـــه حال عودته.. فيما تواصل خطيبته دراستها الجامعيـــة .. ويكـــون الزفاف حال تخرجها من الجامعة وعندما يكون له اسم في السوق.

(احترق كل شيء.. لقد سلب مجموعـــة مـــن المقـــاتلين مجهولي الهوية منزلنا..

كما احتلت إحدى المنظمات مكتب والدي في الحمـــراء لقد قررنا الهجرة إلى فرنسا).

جاءت رسالة أخرى.

(أبي أصيب برصاصة طائشة ..

نزحنا إلى بيروت الشرقية. هناك من يغلـــق الأبـــواب في وجوهنا..

الرصاص ينهمر من كل اتجاه. لم يعد لبيروت وجود).

لم تذكر الهجرة..

* * *

قرر السفر إلى دمشق .. من هناك يستطيع الوصـــول إلى تماضر ومعرفة ما تبقى منها...

الطريق البري المزفت طويل .. إنما ساعده على تكـــوين صورة كبيرة لها .. وإطار متكامل للحرب الدائرة بين الأحـــزاب والمنظمات ذات الهويات المتعددة.

لمعرفة أيسر السبل للوصول إليها..

سوف يتصل بها من دمشق ..

ويدعوها للحضور .. لن تتأخر يعرف أنها سوف تطير.. ولكن لماذا دمشق .. لماذا لا يذهب إلى بيروت؟ إنه يعرف المكـــان الذي تقيم فيه.

اجتاز الحدود بعربته.

وأمام أحد الحواجز اقتاده بعض الأفراد إلى غرفة صـــغيرة تم استجوابه فيها واستمر احتجازه ثلاثة أيام.

تم نقله بعدها في عربة أجرة تمت مـــصادرتها إلى موقـــع متقدم.. تعرضت العربة لوابل من الرصاص.

استطاع الهرب .. تاه في المروج .. أخذ يتجول على غير هدى.. كانت بيروت.. تحثه على الإسراع للوصول .. كل شـــيء غاب عن ذاكرته. كل ما يتذكره .. إنها دعوه للحضور ..

(جد مستغربة عدم حنينك للذكريات.

هناك هاجس يعيش في أعماقي يقـــول لي.. إني ســـوف أراك).

أخذ يردد هذا المقطع الذي ورد في أكثر من رسالة مـــن

رسائلها لكل عابر سبيل يلتقي به في الطريـــق لعلـــه يرشـــده إلى هدفه..

ـــ أي طريق يا بني..

ـــ طريق تماضر ..

ـــ تسكن أي المدن.

ـــ لقد قالت إنها سوف تراني .. نعم إنها تنتظر مقدمي ..

ويهز عابر السبيل رأسه.. متأسفاً على الـــشباب الـــذي ضاع.. والعمر الذي انتهى في زمن الحرب.. ليكون شاهداً لـــزمن غير موجود.. زمن تم شنقه في وقت تلاشي في العدم.

عصام ما زال يتجول في المروج المحترقة.

السفارة السعودية تبحث عنه بعد أن أفـــادت ســـلطات الحدود بأنه اجتاز مركز الجمارك في طريق دمشق ـــ بيروت داخلاً الأراضي اللبنانية.

تماضر اختفت من منزل أقاربها .. ويقال إنها عـــادت إلى بيروت الغربية لتحمل بندقية.

* * * *

تداعيات موقف احتضر

(مدخل)

الانتظار علامة مجهولة. ترسبت في أعماق الكائنات منـــذ الأزل. وقد حاول بعضهم خلق مبرر لذلك الشيء غير الملموس الذي يشعل في الأعماق أتون القلق والضياع وحالة من الحرد التي تصل إلى أقصى درجاتها الحرارية عند التقاء عقارب الساعة. معلنة أن الموعد أزف.

* * *

1 ــ إذا بكل شيء هباء.. وكل ما كان مجرد تهويمـــات شـــيطانية زرعها مجهول بقسوة فوق شباك ممزقة ألقاها البحر ذات يوم على الشاطئ الحجري بعد أن التهم الصياد.

كان عليّ أن أنتظر.

أدري. إن ذلك معناه زيادة عدد شعرات الشيب في رأســـي

الذي أخذت السنون كل ما في داخله من حواصل لأصل في النهاية إلى مرحلة الصفر .

الصفر ..

الصفر من كل المحصلات التي يعيش لها كل فرد.

ابتهال. تركتني في عرض الطريق بعد أن كان موعدنا يعلـــن وصوله لتصفع كل من حولها.

: إنني لا أريده زوجاً.. إنه إنسان غير مبالٍ.. إنسان فقـــير.. وأخلاقه تجارية..؟

2 ــ لا أدري من زرع ذلك في أفكارها.. وأنا الذي أصبحت غير مبالٍ حتى لا أصدق ما يقال عنها من أصدقاء أسرتها.. وفقير.. لرفضي كل عروض الحياة من أجل البقاء إلى جوارها . وذو أخلاق تجارية.. حتى لا تشعر بالإحباط، وهي ترى أشـــقاءها يتناحرون في إثراء زوجاتهم.. في حين تتجرع غصص الحسرة كلما نظرت إلى أسمالها.

3 ــ كان عليّ أن انتحر..

قبل أن تلتقي عقارب الساعة على الموعد المحدد. وقبـــل أن تظهر في الروزنامة ورقة اليوم الموعود.

4 ــ الانتحار هو المخرج الوحيد..

طلقت عملي .. هجرت أصدقائي .. رفضت ذلك الرجـــل العجوز الذي أحبني وشعر أنني ابن له وقد حرمته الأيام ذلك

الابن فخطب ودي.

كما قرر إسعادي بتزويجي من إحدى كريماته..

ابتلعت الحبة الأولى من علبة الأسبرين.

ثم القرص الثاني .. كانت المرارة مكروهة. أما رسالة الوداع التي كتبتها بهدوء .. فتقبع تحت المخدة..

وتوالى ابتلاعي للأقراص الثلاثين..

وقبعت العلبة فارغة بجوار فراشي . .

وتمددت . . في هدوء . .

5 ــ الساعة تشير إلى التاسعة مساءا وأنا وحيد في غرفتي التي خيم عليها ظلام دامس .

6 ــ تحسست للمرة العاشرة الورقة . . الرسالة التي ترقد تحت المخدة . . ولم أعد أدري ماذا حدث بعد ذلك . .

كان الضجيج حولي

وأشعة النور تتسرب من النافذة .. وأصوات الحياة وعبث النهار ..

إنها أصوات معروفة وحركة تقول إني أعرفها وكل شيء حولي يقول إنني ما زلت في غرفتي .

رفعت بوجل يدي اليسرى وإذا بسير الساعة الأبيض الصقيل يلفح وجهي ببريقه .. يعيدني للواقع الذي فررت منه .

أنها العاشرة صباحا

يا الله. . !

هل كنت في حلم . . وأدخلت كفي تحـــت المخـــدة؛ وإذا بي أجد رسالة المساء الوداعية ..

قفزت من الفراش . .

كل شيء عادي .

علبة الأسبرين الفارغة تنتصب فاغرة فاها فوق أرض الغرفـــة وشريط الأقراص الفارغ يمد لـــسانه بـــشكل عجيـــب . . ارتديت ملابسي ..

7 ــ اتجهت إلى مقر عملي . .

كلهم يحدق في بشكل مقلق . . وألف سؤال حـــائر فـــوق العيون . . يسير خادم المكتب أمامي ويفتح لي باب مكـــتبي، يقوم بمسح سطح الطاولة التي تراكم عليها التراب .

ثم يفتح ستائر النافذة ويتجه إلى التقويم المعلق على الجدار.

يقوم بنزع الأوراق . . واحدة . .اثنتان . . ثلاث . .عشر . . احدى عشر لم اهتم بذلك أول الآمر . .

ولكن كومة الأوراق التي بين يدي الفـــراش . . دفعـــتني إلى التطلع في عقارب ساعتي . . أنها تقول العشرة والربع ..

والتاريخ يحمل رقمي عشرة . .

ماذا يعني ذلك؛ انحنى الفراش قليلا يرتب الملفات القابعة على سطح المكتب، ثم ألقى بأوراق التقويم في سلة الزبالة المنتصبة

بجواري وخرج .

8 ــ تفحصت ورقة التقويم .

فإذا بها تقول اليوم الاثنين والتاريخ الرابع والعشرون من ربيع الأول .

ماذا يعني هذا . . ؟

نهضت من مقعدي، وانحنيت التقط أوراق التقويم من سلة المهملات وأخذت أرتبها فوق مكتبي . . دخل الفراش بكوب الشاي كما هي عادته . . وقبل أن يخرج دخل زملائي في العمل .

أخذ كل واحد يقول لي وهو يشد على كفي " الحمد لله على السلامة " فقط الحمد لله على السلامة، فاحترت بماذا أرد ولم أحاول السؤال وقبل أن أغادر المكتب بساعة..

دخل الفراش مرة أخرى. وبين يديه دفتر تسليم الأوراق. فتحه أمامي. ثم ألقاه بهدوء فوق المكتب. تطلعت فيه محاولاً معرفة الأمر.. فلم ينبس بكلمة. فأخذت أعدل من وضع الدفتر لمعرفة ما في داخله.

وإذا به صورة من مذكرة إحالتي للتحقيق. وموقعة من المدير العام للإحاطة بمراجعة الشؤون القانونية. استلمت الورقة ثم غادرت المكتب.

9 ــ اتجهت إلى الدار. التي تقيم فيها والدتي مع زوجها. فإذا بها

تستقبلني بالدموع.

وأمام صراخ الجميع إذا بابتهال تقترب مني. تمـــد يـــدها لي تقول لي وهي تشد على كفي: (الحمد لله على الـــسلامة) ثم تعود إلى الاختفاء.

وتأخذني والدتي وإخواني إلى غرفة أخرى. كلـــهم يقـــول: الحمد لله على السلامة وأنا أتلفت كالأبله .

رن جرس الباب ..

فنهضت والدتي من مكانها.

ثم قالت لأحد أخوتي ..

هذا زوج ابتهال جاء لأخذها..؟

وخرجت .. وخرج أحد أخوتي.. وران الصمت على البقية.

10 ــ جلس في حضني طفل صغير لم يتجاوز الثانية لم أتذكر اسمه أخذ يعبث.. بمحتويات جيبي الأمامي.

* * * *

أحرف من رصيد الذاكرة

الأقدام تزرع الطرقات حياة .. والأصوات تنسل هادئة معلنة عن ذاتها مع بداية يوم جديد. يخطر في ساعته الأولى التي لم يتداخل فيها الإحساس. فيكون الخليط المتباين الهادر في مرحلة جديدة لتكون علاقات تصل إلى مرحلة الانفجار في بعض الزوايا.

— ع —

أدار «معتمد» محرك عربته كما هي العادة. الطريق واحد أولاً «ضياء» ثم «جهاد» وأخيراً «شعاع» إلى مدارسهم وأخيراً يتجه إلى مقر عمله.. حيث يكون أول الموقعين في دفتر الدوام بعد فراش المكتب العم «عطية».

ـ أ ـ

منذ البارحة بعد أن قلب مجموعة من الصحف. وهو يفكر في كتابة شيء لا يدري ما هو.. إنما هناك دافع داخلي وهاجس غريب .. يطلب منه الإمساك بالقلم والكتابة. عليه أن يكتب .. إنما ماذا .. انثالت الكلمات ...

ـ س ـ

كان يا ما كان.. إنما ماذا «كان»؟ زرع نقطة وعلامة استفهام أمام هذه الـ(كان) وتذكر أنه عندما حاول تقديم المصروف اليومي لأبنائه الثلاثة كما هي العادة أكمل مصروف «شعاع» من قطع النقد الصغيرة التي يحتفظ بها عادة في طفاية السجائر بالعربة.

ـ خ ـ

كان هناك شاب في الثامنة عشرة من عمره أسس مع رفاق له نادياً رياضياً في الجانب الشرقي من المدينة يضم نخبة جيدة من طلبة المدارس.. وماذا بعد ذلك؟ اختفت فائقة من الوجود. فانسحب من النادي وهاجر إلى الشمال يبحث عن عمل..

— ح —

لم يتألم أحد لفراقه.. بقدر ألمه الذاتي. كلهم فرح بسفره ومغادرته الدار.. لم يعد يعتبر بشيء في نظرهم.. عليه أن يسافر حتى يجد لحياته معنى..!

— م —

أخذ يتلفت حوله والعربة التي امتطاها مع مجموعة من الركاب المسافرين تغادر موقف البداية.. هناك من يلوح لهم بأيديهم مودعة.. أما هو فقد كان وحيداً.. وانتصبت يده اليسرى تلوح كالآخرين.

— م —

فائقة كانت تنتظر مقدمه.. أوهم نفسه بذلك لقد هاجرت منذ ثلاث سنوات إلى الشمال. لا يدري لماذا. وإن كان يظن أنها فعلت ذلك من أجل البحث عن عمل. كما يفعل الآن وارتسمت ابتسامة صغيرة على شفتيه.

— ع —

معتمد لم يجد العمل المناسب في الشمال فعاد إلى مدينته الرابضة فوق قمم جبال السروات.. وعاد إلى الحديث مع رفاق

الدرب ممن رفض مغادرة المدينة.

— م —

كون (معتمد) مع وافد مؤسسة للمقاولات بـــدون رأس مال أو عقد شراكة كل ما عليه أن يستلم (البضاعة) التي يأتي بهـــا شريكه من الشام .. واليونان.. وتركيا بشاحنته.. ويأخـــذ ربـــع الثمن .. وتزوج شقيقة شريكه لتكون روابط المؤسسة قوية..

— ع —

أخذت الأيام ترسم خطوطاً جديدة في طريق حياته بمقدم «فائقة» من غربتها. لتسكن وحيدة في دار أسرتها المطلـــة علـــى الجانب الشرقي من المدينة. كان اللقاء صدفة. أخذ يلاحقها وهـــو يشكك في هويتها. وصرخت.

ـــ معتمد...

ـــ فائقة..

وأخذت الذكريات تنهل معلنة عـــن أصـــالة المواقـــف السابقة.

— م —

أخذ يراجع حساباته. يعلق ما لا يريد فوق مشجب الحياة لإيجاد منفذ يلج منه إلى رغبته التي أخذت تقلق من حوله من خلال مواقف لم تكن..!

— ع —

بدأ يطالب بنصف الثمن. ويشاكس رفيقه في المؤسسة مدعياً أن الحكومة تحارب مثل هذه المؤسسات. وأنه مهدد بالسجن لو وشى به أحدهم..

— م —

نفذت جميع رغباته. غدت المؤسسة باسمه وشريكه السابق أصبح عميلاً يورد له طلباته...!

— ع —

بابا.. الساعة السابعة والربع صباحاً. لقد أزف موعد المدرسة. تململ في فراشه قليلاً ثم «فرك» عينيه بيديه كان الثلاثة يقفون في الممر المؤدي إلى الباب الخارجي. وزوجته في المطبخ تعد كوب الحليب الصباحي.

– ع –

بعد أن ترجلت «شعاع» من العربة وانتظرها حتى ولجت باب المدرسة تذكر أنه كان يعيش حلماً لا يدري كيف كانت أحداثه.. فأخذ يفكر محاولاً ربط الأشياء المتناثرة في أعماقه لعله يصل إلى شيء. وأخذ يردد كلمات أغنية لطلال مداح انبثقت من المذياع دخلت فجأة لتقطع محاولته في الوصول إلى نتيجة.

* * * *

لعبة الأيام

المناخ:

في الثلاثين من العمر يعيش حياة هادئة بعيدة عن المشاكل. أمام عينيه مقوله في إطار مذهب تقول (مهما ركض الإنسان وراء الحياة فلن يلحق بها)..

الحدث:

عدم مبالاته.. دفن أحلامه في أعماقه وخلق لنفسه عالماً غريباً من الوحدة. جاعلاً شخوص معايشته تلك الوجوه التي يصافحها في الطريق لأناس يجهل هويتهم.. وانتماءهم. مؤلفاً بذلك سيرة ذاتية من الأوهام.

يعمل في إحدى مؤسسات الدولة في مدينته التي فشل في الانفصال عنها. ورغم ما في أعماقه من حزن بأن تلك النقود القليلة، أقل من أن تذكر. غدا له منزل خاص.

مضت خمس سنوات على زواجه. شـــاركته (عواطـــف) شظف العيش وسغب الحياة. قنديلها الحب الذي لم يتطـــرق إليـــه العفن لعلمها أنها رفيقة درب منذ الصبا.

عالم الوجوه التي يلقاها في الطريق. أو يشاهدها في الأفلام السينمائية. وفي بطن الكتب التي يقرأ.. أصبح القاســـم المـــشترك. وهو يحدثها..

وهو يسير معها في الأسواق أو المتنزهات.

أراد أن تكون من هذا العالم لكن لم تستطع تجاوز واقعهـــا رغم الأحلام المشتركة.. والخاصة.

شعر بأن هناك شيئاً..! إنما ما هـــو..؟ لا يـــدري لكـــن رفضها أي دعوة لممارسة العلاقة الزوجية وتمرها من ذلك بـــشتى الطرق وبأي عذر. ضخم سحابة الحزن القابعة في أعماقه ليهـــرب إلى ممارسة بعض العادات السيئة بين وقت وآخر. حيـــث تكـــون اللذة رغم شعوره بدناءة عمله.

ووجدها؛ صديقة لزوجته التقى بها كثيراً تفكر وتتحدث بحرية متناهية رغم رنة الحزن التي تحاول وأد الفـــرح المطـــل مـــن عينيها.

أخذ يفكر فيها وضمها إلى عالم الوجوه التي يشاهدها ولا يحتك بها إلا في تفكيره الذي أحياناً توصله فيها أحاسيسه بأنه تافـــه حتى القمة.

اعتراه القلق. وسرت في أطرافه رعشة الـــذل وتـــاه في ضباب الهموم والآلام المترسبة في أعماقه. ومع هذه العوامل ما أن عرف من (عواطف) بأن عليه أن يوصـــلها هـــي وصـــديقتها إلى السوق حتى كتب على بطاقة صغيرة..

(أريدك.. أرجو ملاقاتك على انفراد).

وجدت البطاقة. فأخرجت قلمها وكتبت في ذيلها كلمة واحدة (لا)..

فوجئ بذلك رغم استعداده الفكري لهذا الرد. إنما شـــعر بشيء من الابتهاج، فكتب لها رسالة شرح فيها مقدار ارتياحه لهـــا وقربه منها.

* * *

الرسالة الأولى..

أحييك تحية الإخاء ...

ما أشد دهشتي. عندما تصلب نظري علـــى البطاقـــة.. وأخذت أفكر .. ترى ماذا يريد؟ .. يا للغرابة.. ســـاورني شـــعور غريب .. وظلال من الحزن الأسود.

قولك استغربت كلمة (لا).

لا غرابة في الأمر يا عزيزي.. يعني الرفض طبعاً. لا أريد الاحتكاك بك أنت بالذات.

كيف أقابل الحسنة بالسيئة أن ذلك خيانة..

يؤنبني ضميري لها ما حييت..

ومشاعري نحوك شعور أخت.

هو شعور نبيل وعواطف مقدسة..

لا داعي للقلق فالأمر جد تافه .. إليك التفسير.. المـــرأة تبحث عن الرجل.. أقصد الصغيرات الـــلاتي في ســـن المراهقـــة. الرجل دائماً متزن راجح العقل قلبه واسع والمرأة مخلوقة حـــساسة ضعيفة ـــ رب اجعلني على نفسي من القادرين ـــ لا تعي خطورة تصرفاتها.

لا معنى. عندي غير ذلك..

ولماذا يا عزيزي لم تنم ليلتين.. لا بأس عليك.. واسمح لي أن أقول لك. إنك مصاب بالتهاب العواطف..

هناك مسكن اسمه عواطف.

حظك مع النساء سيء؟ يخيل لي أن ذلك أفضل فالنـــساء مثل البحر كلما شربت منه ازددت عطشاً.. ويكون الموت.

تقبل قبلاتي.. احتفظ بها. إن المبذرين إخوان الـــشياطين. أرجو أن لا يؤثر ردي عليك.

سامحك الله وسامحني.

فهذه التصرفات الرديئة..

والطيش..

للساذجين..... سلام ..

* * *

الرسالة الثانية.

أخي..

تحية ناعمة.

اتضح لي من خلال رسائلك أنك تقوم بـــدور الطبيـــب الذي يجس نبض المريض لكشف العلة.. قد لا يفلح الطيب أحياناً.

لست أدري. ما هذه العاطفة التي جاءت فجأة وبـــدون مقدمات..

إن ما تشعر به رغبة طارئة فقط (لا أقول طائش) إنما هو إحساس يساور البعض.

لقد جبلنا هكذا. إن ما تحس به (نحوي) ليس حباً.. أنت واهم .. متوتر الأعصاب مرهق.

هناك ما يضايقك.

أنا أخت تهمني سعادة أخي..

لا أريد أن أكون له مصدر قلق.

أنا لا أؤمن بشيء يدعى الحب ودائماً أقف ضـــد هـــذا التيار بشجاعة وجلد.

قولك (العواطف تثور فجأة) لم أر ما يثيرك، دعك مـــن روايات الرومانسية.

قولك (لن أسكت حتى أكسب رضاك).

كسبت رضاي. وفزت بعطفي . أنا جديرة بصداقتك .

عزيزي لم تقترف ذنباً ولكن الواجب أن تتفادى مثل هذه المواقف. وأن تقدر موقفي بالذات .

آمل ذلك.

وقولك (لا أعتبرها خيانة) كنت أعني نفسي لا أعنيك.. فقد بت أحس بذنب..

وأخيراً لا أحبك يا عبيط.. وشكراً .

* * *

فاصلة:

لم ترد على رسالته الثالثة وقررت أن تتجنب ملاقاته. وفجأة إذ بها تقف أمامه. قرر إيصالها بعربته إلى وجهتها.. فركبت في المقعد الأخير.

: ماذا جاء .. بك..

: كنت قلقة، خشيت أن عواطف عثرت على رسائلي..

: هل أنا مجنون..؟

: نعم وعبيط.. إذ كيف تريد مني خيانة صديقتي .

: سوف أتابع.. حتى أذيب الجليد.

: سوف تفشل ..!.

وانتهت الطريق .. وانتهى الحوار. كما فشل في الوصول حيث انتهت مغامرته عند تلك اللحظة مؤكدة أن كل محاولاته

مجرد أحلام يخشى الواقع منها. وبقيت الرسائل زمناً طويلاً في جيبه يخرجها بين لحظة وأخرى مستعيداً كل سطر فيها مترقباً أن يعلن جرس الهاتف هذه المرة مقدمها. فغدا موطناً للشعور بالألم. وعاد إلى مرحلة الضياع والتفكك الداخلي فأخذ يهرب إلى خارج المدينة وحيداً يتجول في الشعاب والأودية يفكر في لا شيء.

الرسالة الوداع:

أحبك.

لم أستطع قول ذلك في حينه.

أخذت أفكر في محاولتك. ولم أصل إلى مرحلة الاقتناع. كان أبي قاسياً غليظ القلب لا همَّ له غير أن يرانا متربين تربية حسنة (العصا) أسلوبه الوحيد جل ساعات يومه عمل.

وعندما يعود إلى الدار ويجدنا نبكي. كل زوجة من زوجاته الثلاث تشتكي فلا يجد غير العصا. حتى لا يعتدي أحدنا على الآخر..

لم يكن يفرق بين الفتاة والولد.

سوى ــ أننا ــ حبيسات الدار.

وتزوجت. لم أعرف غير تلك الليلة. فماتت بقايا فرحة كنت قد بدأت في تجميعها. إنسان؛ أمي لا يرى أبعد من خطواته.. يعتبر المنزل غرفة نوم.. يأوي إليها آخر الليل. وتهاوت أحلامي ومطامحي.

حتى أطفالي لم أعد أقبلهم. لم أعد أشعر بهـــم ولم أحـــاول منحهم الحب والحنان الذي أخذت أبحث عنه.

ووجدت أني على شفا الهاوية. وإحدى شقيقاتي تتخـــرج من الجامعة وتتوظف. بل تجد من تحب لم تخف ذلك فأنا صـــندوق أسرارها. لم تدرك ما معنى ذلك بالنسبة لي.. لقد انفجرت القنبلـــة الموقوتة. هربت من منزل زوجي. لأصبح امرأة مطلقـــة تطاردهـــا الشائعات وتلاحقها الأقاويل.

لم أعد أحترم الحب.. دافنة العواطف في جب عميق مع.. تصميم أن أصبح شيئاً. فانكببت على القراءة.. أقرأ كل ما يقـــع تحت يدي لأشغل وقتي. وأعيد الحرارة إلى أعماقي المتجلدة. محاولة مواصلة دراستي للحصول على شهادة ما ..

ووجدتك .

وبعد تردد طويل قررت أن أقول ـــ نعم ـــ ومع ذلـــك تذرعت بالصبر محاولة تلقي ندائك الأخير..

وفجأة انبثق النور.

في السابعة من مساء يوم الثلاثاء الماضي. لمحـــت صـــالح رفيق الطفولة يلج دارنا ويده في يد والدي (إنه قريب من بعيـــد، فوالده ابن عم لوالدي) يشبهك في كثير من صفاتك يقـــول مـــا تقول.. وسألني والدي عن رأيي فيه فلم أقل شيئاً.

: لقد تقدم لطلب يدك.

: وزوجته...؟

: رحلت إلى العالم الآخر مخلفة طفلة..

: وأنت..؟

وتم عقد قراني في هدوء. لم يعلم بذلك أحد وعليه ها أنا راحلة مع زوجي.. لقد أحببتك .. وانتظرتك ولكن كـــان خـــيراً عندما لم تستطع العثور على الطريق.

* * *

في اللحظات التي بدأ يستعيد فيها ما جاء في الرسالة وهو يجلس وحيداً في عربته أمام باب الدار. أقبل أحد الأصدقاء ففتح له باب العربة. وأعاد الأوراق كما كانت..

: إلى أين؟

: إلى المقهى.

: ما رأيك نذهب إلى السينما.

لم يعارض. أدخل الأوراق في جيبه بهدوء وعدم مبالاة ثم أدار محرك العربة..

* * * *

الاكتشاف

لم يكن موسم الصيف قد بدأ بعد. فنادق الطائف لا تزال خاوية. تتأهب للموسم الجديد. كنت وحيداً في الفندق الصغير المطل على الشارع العام. أستذكر دروسي أبحث بين دفتيها عن النجاح الذي استأذنت من دائرتي في الرياض حتى أمسك بخناقه هنا.

كنت وحيداً حيث أني لا أعتبر من قدمت معهم رغم سكناهم معي الفندق ذاته طلاب نجاح. وذلك لقضائهم جل وقتهم خارج الفندق. حتى هذه الليالي الثلاث التي مرت لم يقض بعضهم ليلة واحدة للاستذكار. والنزيل الوحيد الذي وجدناه قبلنا لا أتمتع بلقائه كثيراً. لم يقل كلمة واحدة حتى الآن وإن التقينا ليلتين في صالة الفندق نشاهد فيلم السهرة الذي يعرضه التلفزيون.

دخلت صالة الفندق. فوجدت (عمر) وهذا اسم نزيل

الفندق منحشراً في أحد المقاعد. بينما التلفزيون مغلق على غير عادة. تلفت حولي أبحث عن كلمات أبدأ بها حديثنا الأول والأخير فالاختبار انتهى وعليّ أن أعود مع تباشير اليوم التالي إلى الرياض.

: لماذا التلفزيون مقفل..؟

: لا يوجد به شيء ..

وأدرت مفتاح الجهاز. فعلاً لا شيء هناك فكل ما به نقاط سوداء فأغلقته.

: هل اقتنعت؟. ولكن هل أنت حقاً مسافر..!

وقبل أن أجيب على سؤاله استرسل: دعنا نواجه الحقائق يا سيدي. لقد آن لنا أن نفترق.. وثق أني غير حاقد عليك وحسبي منك أنك وهبتني شيئاً من خلال الأيام التي قضيناها. لقد توفي (حامد) حين كان أبناؤه في مطلع الحياة تاركاً لهم أرضاً زراعية كبيرة وداراً جميلة وبما أن أبناءه لم يكونوا سوى طفلتين (نورة) في الثانية عشرة و(سارة) في التاسعة ووالدتهم فقد عاشوا. ولكن النجاح لم يحالفهم رغم ما بذلوه من جهد في الحفاظ على الأرض. وغلب عليهم الجوع وعلى سيمائهم علامات الاستشهاد الأبي..

لم يتأكد أحد من وفاة (حامد) الذي رحل ذات يوم ولم يعد بعد ذلك. انتظرت الأختين ووالدتهما التي رحلت بعد عشر سنوات من الإرهاق. إنما قالت الكبرى: لابد أنه مات.. وارتعشت الصغرى لهذه الفكرة وقالت: إنه لا يمكن أن يموت. إذ لا يمكن

(لإنسان جميل رائع مثله أن يموت) لابد أنه يخوض (المغـــامرات) في مكان ما. وقد يكون هناك سبب وجيه يمنعه من العـــودة. فـــإذا تلاشت الأسباب فأنه عائد بكل تأكيد.

تسلقت الأعشاب المتوحشة كـــل شـــيء. ولم يعـــد في مستطاع الاثنتين مواصلة العمل في الأرض التي قلبت لهـــم ظهـــر المجن. وهاجرت (سارة) إلى المدينة متذرعة بقريبة من بعيد. قد تجد منها سنداً في إيجاد عمل لدى إحدى الأسر الكبيرة.

(نورة) رفضت الفكرة لمعرفتها بأنه لا طائل من ذلـــك .. وذات صباح عادت (سارة) وشيء مـــن البـــشر والحبـــور يمـــلأ خطواتها. وجدت أختها تجلس على أحد الصناديق الفارغة بالمطبخ. وعلى محياها دلائل تفكير عميق ..

: وجدت عملاً.. وهم بحاجة لآخرين.

: لقد عاد..

: صالح. أين هو؟ ولما لم تخبريني بذلك.

: لقد رحل مرة أخرى.. في أمر يهمنا؛ رغم أني قدمت له كل شيء!.. حتى يمكث نهائياً.

وبما أن هناك مقولة عجيبة تقول: (المرأة لا تنـــسى أول رجل في حياتها) لهذا رفضت (نورة) دعوة شقيقتها إلى المدينة. وبعد تسعة أشهر وضعت مخلوقاً صغيراً خرج إلى النور بدون ضـــجة أو مضاعفات. ولكن لتموت وحيدة بعد أيام عانت فيها كثيرا.

بعد وفاتها بأيام زار أحدهم دار الرعاية الاجتماعية مع زوجته، وطلبا من المسئول إرشادهما إلى طفل يستطيعان تربيته فقدم لهما ذلك الوافد الجديد. الذي لم يقم العاملون بالدار على اختيار اسم مناسب له. حيث ساورهم القلق من الطريقة التي وصل بها الدار. حيث وجدته إحدى العاملات بالمستشفى العام يبكي بحرقة فوق أحد المقاعد المنتشرة أمام عيادات الأطباء الخارجية.

أما سارة فقد تخلت عن عملها لتعود إدراجها إلى الدار المهجورة. وأخذت تبكي أختها. وسارع أهالي القرية إلى مساعدتها لاجتياز المأساة.

: ماذا تريد؟

: أنا..!

: أجل أنت. لقد انتهى كل شيء. لقد رحلت (نورة) أم أن ذلك لا يهمك. وخرج (صالح) لكي تلحق به وتتعلق بثوبه راجية أن يعود.

وصلنا صوت كاتب الفندق يتجادل مع وافد جديد الأمر الذي شغلني عن متابعة رفيقي الذي نهض دون استئذان. وتلفت حولي أبحث عنه. وهرعت إلى الكاتب أسأله فلم يلتفت نحوي ولكن عندما شاهد إصراري قال: لا تهتم إنها عادته كلما سمع أو وصل إلى سمعه أن أحد رواد الفندق يهم بالرحيل يروي له

حكايته، فهو زبون دائم بالفندق.

* * * *

أبحار في ذاكرة إنسان

كانت الرسالة تقول:

(حين تفصل المسافات بين الإنسان والإنسان يتحول كل ما في الأعماق إلى كتلة من الشوق والحنين وترتسم صور أكثر جمالاً مضافاً إليها دفقه الشعور الجم الذي ينبت واحة ظليلة في صحراء العمر، أما إذا قصرت هذه المسافات وتضاءلت واضمحلت بين إنسانين التقيا على أرض المحبة والصداقة... الخ.

[2]

الساعة تشير إلى العاشرة والنصف مساء وأنا في طريقي إلى المقهى الذي يقبع على تله تبعد عن المدينة خمس عشرة دقيقة، اعتدت الهرب إليه منذ عشرين يوماً مع أوراقي والصحف التي استطعت الحصول عليها من مكتبة الحي ولا شيء آخر سوى الجراك ولي الشيشة الذي ينفث الدخان الأبيض في حديث أزلي

مشبع بصور الحياة القاتمة التي أخذت تنسحب مع الزمان في غفلة من الأحداث الرتيبة التي لا لون لها ولا حياة..

ـــ إنني.. أبحث فيك عن السعادة.

قالت .. فداء ذلك ثم انفلتت هاربة.. كانـــت الطريـــق طويلة، نهايتها غير مرئية رغم الأضواء الصفراء المتدلية من السماء في عفوية غير محببة سرقت من الأطفال المتكومين على الأرصـــفة ذوي السلاسل الذهبية والسيارات الفارهه قهقهـــاتهم المـــصطنعة وبحثهم في شبق عن عيون نجلاء متلصصة من خلف البراقـــع الـــتي كانت نشازاً فوق أجسام فارهة الطول.. ترتدي غلالة شفافة.

[3]

انتهيت من قراءة آخر سطر في المجموعة القصصية الـــتي وصلتني حديثاً مجتازة جميع الأسوار لتقول لي أن هناك عالماً يتأمـــل النساء في شبق ويبحث عن الحياة والأرض.. عبر لفافـــة حـــشيش أخذ دخانها يرتع في جدل داخل غرفة صغيرة ملطخة بـــشعارات مزيفة عن القومية.. وثوار العالم الثالث.. صور كثيرة متناثرة كانت تتزاحم على الجدران وفوق الأرضية وتحت السقف الذي بدت فيه آثار الأمطار وتكلس أبيض اتخذت منه العناكب والذباب مكانـــاً لقاذوراتها المتيبسة منذ ألف عام قام التاريخ بتسجيله قبل أن يكون الطوفان الذي ورد ذكره في الكتب السماوية بأشكال مختلفة.

[4]

البول يحاصرني.. وآخر ورقة في مجموعة القصص تتلاشى أمام ناظري ونادل المقهى الذي يقف أمام وافدين جديدين يحبب لي طلب تغيير رأس الشيشة للمرة الثالثة، أنه العالم الثالث هل احترق معه.. الساعة تشير إلى الثانية عشرة موعد عودتي إلى الدار وتسلقي صنم الوهم الذي زرعه ضجيج الشارع.. وصوت التلفزيون المرتفع.. وعراك أطفالي مع أبناء شقيقتي والزوار الذين تمتلئ بهم صالة الاستقبال فأرفع كفي إلى رأسي محاولاً إغلاق سمعي في محاولة استسلام بدائية حتى لا أنفعل وقد احتقن وجهي بالدم.. البول يحاصرني.. ونادل المقهى يختفي. لأنهض من مقعد الشريط الذي أفضل الجلوس به كل مساء منذ هربي.

[5]

قبل أن تطل أنوار المدينة الصفراء أوقفت عربتي جانباً وترجلت منها وتوغلت بعيداً في الظلام لأجلس حتى أتبول.

احتبست ضحكة بلهاء في داخلي وأنا أنهض لأعود لعربتي التي تركت محركها مداراً. وتلفت حولي.. كانت الأضواء الصفراء المدلاة من السماء في بلاهة تطل من بعيد.. وفداء مازالت

تسير. وتذكرتها أنها تبحث من خلالي عن السعادة..

وتذكرت أنني إنسان.. لا يرتدي بذلة داكنة.. أو يفضل شراء المسابح العاجية ذات الرائحة المسكرة أو ارتداء عباءة الـــوبر الصفراء الرقيقة.. فأطفأت مصابيح العربية الأمامية وتجاوزتها سارقاً النظر إليها علها لا تعرف عربتي.. فتلوح لي بيدها..

(6)

ـــ من أنت..؟

ـــ إنسان.

ـــ من أين أنت قادم.

من هناك وأشرت إلى الظلام الذي كان السبب في وقوفي في مخفر الشرطة.. لقد تجاوزت عربة رجال الشرطة.. شك أفرادها في هويتي عندما تجاوزتهم وأنا مطفئ المصابيح.. وإذا بعربة المـــرور تشعل مصباحها ذات الألوان المتعددة المنـــصوب فـــوق ســـقفها، تجتازني ونداء ينبعث من داخلها يدعوني إلى الوقوف.. والترجل.

[7]

صادرت البزاة الرمادية كل ما في عـــربتي مـــن أوراق.. ألقاها جندي صغير الجسم تنم ملامحه عن أنه لم يتجـــاوز الثامنـــة عشرة من العمر وتدل حركاته على أنه جديد في العمـــل.. علـــى

طاولة مدير المخفر.. فأطلت مجموعة القصص من بين الأوراق فأخذ يقلبها ذو النجمات الثلاث في بلاهة وإذا بفداء تطل من إحدى الصفحات..

ـ سيدي كنت أبحث من خلاله عن السعادة فتجاوزني..

ـ لقد تابعناه..

ـ .....

ـ كان عبوره إلى داخل المدينة مريباً ..

والتفتت فداء نحوي.. غرست عينيها النجلاوين في لحمي ثم تطلعت إلى قدمي الحافيتين فانحنت تلعقهما.. كان الورم بادياً في أصابعي ومؤخرة قدمي.. ثم وقفت وقد اغرورقت مقلتاها النجلاوان بالدموع، لأول مرة كانت هذه اللحظة سكري بالفرح لوجودي بين يديها.

ولكن صوت قدوم مخالفين آخرين خنق كل شيء. اختفت فداء وتم إغلاق المحضر الذي تم فتحه لي كزائر لأول مرة لقسم الشرطة ليصبح ملفاً متكلساً يتراكم عليه الغبار.

ـ تفضل .

ـ إلى أين ..

ـ إلى داركم.

ـ وأوراقي..؟

ـ سوف تحفظ لدينا..

ـــ وفداء..

ـــ إنها ضمن هذه الأوراق.

[8]

ارتديت حذائي.. وأنا أدخل عربتي .. وأشعلت الأنـــوار وأخذت أتجول في المدينة أبحث عن داري القابعة في زاوية الإهمـــال فلم أعثر عليها. كان هناك شبح يرتدي بالطو أصفر يجتاز الطريق .

ـــ هل تعرف دارنا.

ـــ في أي شارع تقع.

وأخذت أبحث في ذاكرتي عن اسم الشارع أو رقمه فلـــم أجد شيئاً سوى الفراغ الذي تحول إلى أجزاء أخذت تتناثر حولي.. أطلق الرجل صفارته بقوة أكثر من مرة وتكومت حولي عربـــات مجهولة الألوان أخذتني إلى مكان لا أدري أين هو.

ولكن (تذكرت أنني على غير المعتـــاد. نـــسيت عـــربتي ومحركها مدار وأبوابها مشرعة وأنوارها تعكر الظلام تبحث عن من يأخذها إلى مكان.. حتى عودتي).

* * * *

ترديدات

الطائف رغم الحب الذي أكنه لها فهي في أعماقي مدينة الأشباح والضياع إذ أن عاشقها لا يستطيع مواصلة الطريق، فكل الطرق تؤدي إلى خارج المدينة ومن جهاتها الأربع. وأنا أقف مع مؤهلاتي المتوسطة في عرض الطريق. إنسان ضائع تاه في الزحام ذات يوم فسرقه نشال محترف كل شيء حتى ملابسه، فخرج عارياً يركض في الشوارع المهجورة من كل الحياة. وإن كانت تعج بعالم آخر هو عالم الأشباح حيث تجد في كل زاوية شبحاً يرتدي بالطو متهرئا صناعة أمريكية متلفعاً بغترة حمراء وقد انحنى رأس الشبح فوق صدره لكن نقيق الضفادع التي تتجول بسيارات مختلفة الأشكال والموديلات يعيد لها الحياة فتقفز في مكانها لتكون على أهبة الاستعداد لمواجهة المجهول.

* * *

انغرس حب سحر في جسمي كنصل خنجـــر مـــسموم وأخذ يجري فيه مجرى الدم كانت صورة وهمية وجدتها في الصوت الذي كان يصلني عبر الفضاء منغماً بموسيقي إلهية هي كل الوجود فأنهض من فراشي لأبحث عن صورتها في كتبي وصحفي المتنـــاثرة حول فراشي على الأرض.

ـــ لقد كان أخي يكتب الشعر.

ـــ وماذا كان يقول . . ؟

ـــ كان يقول أشياء كثيرة.. لكنه الآن صامت.

ـــ ولماذا صمت ..؟

ـــ أثر فيه رحيل أمي..

ـــ ولماذا رحلت .. أمك.؟

ـــ يقولون هربت مع رجل تحبه..

ـــ من قال هذا..؟

ـــ الجيران..

ـــ وأنت الآن ألست معها..؟

ـــ بلى ..

ـــ وهل صدقت الإشاعة ..؟

ـــ لا أدري ..

ـــ لماذا ..؟

ـــ لأنني وجدت زوجها صورة طبق الأصل كما جاء في

الحكايات، أنه يختلف عن أبي، ذلك الرجل الذي لم يشعرنا بأنه رب الدار فقد كان خالي وأقرباء كثيرون اختفوا الآن هم كل شيء في الدار حتى أمي كانت هي أيضاً أكبر من الآن سناً .. أما الآن فقد غدت شابة تلفت الأنظار.

ـــ وهو ماذا فعل؟؟

ـــ من..؟

ـــ أبوك.

ـــ تزوج ..

كان هذا الحوار وهي بعد طفلة في الرابعة عشرة ترتدي ثوباً أبيض تقف على باب غرفتي وقد أخذها منظر الكتب المتناثرة. وصوت والدتها ومجموعة من النساء يصل من وراء الأبواب حيث كانت في زيارتنا مع والدتها التي تربطها صداقة أزلية بوالدتي منذ الطفولة.

ـــ ولماذا لا تدخلين الغرفة.

ـــ أخشى غضب والدتي..

ـــ ولكن لتقرئي ما كتبت من شعر..

ولم تدخل لتقرأ أشعاري، أصرت على الوقوف أمام الباب لترحل من جديد كما قدمت ولكن كان الحب قد اتخذ مجراه في جسمي فأخذت أكتب لها بدلاً من تلك الكتابات التي كنت أقتبسها من الكتب وما يقع بين يدي من صحف.

* * *

التجول في الشوارع كان هوايتي تركتها بعد أن شـــعرت بأنني جسم غريب في دارنا لقد تغير كل شيء في حيـــاتي بعـــد أن حطم أخي طموحي وفرض عليّ مدرسة تدفع معونة شهرية لطلبتها تدرس اللغة العربية والدين فقط حتى تساعده المكافأة في الـــصرف عليّ بعد وفاة والدي الذي تخلى عنا جميعاً ذات مساء فاكتشفنا أننا لا نملك شيئاً. استطعت مجاراة زملائي في الدراسة حـــتى الـــسنة الخامسة فتوقف في داخلي مرجل التلقي.. ففـــشلت في اجتيـــاز امتحان السنة الخامسة مرتين تم على ضوء ذلـــك إلغـــاء المكافـــأة وهرب أخي إلى مدينة أخرى متخلياً عني فأنا إنسان فاشل لا يريد الحياة.

كان التسكع سلواي الوحيدة كل مساء أعود متأخراً إلى الدار فأجد والدتي قد غفت..

* * *

ـــ هل تتأخر كل ليلة هكذا ..

كانت تجلس خلف مكتبي لا أدري كيف دخلت غرفتي.. صدمني صوتها أول وهلة أنني أعرفه.. إنها جارتنا التي رحلت منـــذ ثلاثة أعوام مع زوجها من المدينة. ولحقت بها أسرتها ولكن مـــاذا جاء بها..

ـــ لقد غدوت إنساناً آخر..

كانت أوراقي مبعثرة وبعض الصحف الفنيـــة والكتـــب الصغيرة ملقاة بإهمال حول الفراش.. لقد أخذت تقلب كل شـــيء حتى ألبوم الصور.

ـــ لم أجد لي صورة.

ومن أين أجد لها صورة وهي بعيدة عني وأنا طفل أفضل معاكسة الصغيرات والهرب بدون حكاية فأنا لا أريـــد لي حكايـــة كبقية الحكايات يستطيع كل إنسان إضافة شيء من عنده إليها..

ـــ إنك جميل في هذه الصورة..

هل حقاً أنا جميل ولماذا لم أكن جميلاً سوى هذه الليلـــة.. لقد كنت جارها الموبوء الذي تهرب من نظراته عندما يلمحهـــا في الباب الموارب أو من خلال النافذة تغازل المارة كمجنونة حـــرص أهلها على حبسها داخل غرفة أشبه بقفص القرود..

ـــ كيف دخلت غرفتي ..؟

ـــ الباب الخارجي مفتوح .. وقد عرفت كل شيء مـــن والدتك هذا المساء فعدت بعد أن شعرت أنها نامت.

ـــ وزوجك ..

ـــ سافر..

ـــ وأنا..

ولم تدعني أكمل حديثي.. كانت امرأة مهجورة لم تمارس الحب منذ ألف عام..

وخرجت على أطراف أصابعها .. بعد أن تركتني كومة من الأشياء القديمة. كان آخر عهدي بها عندما سمعت الباب يغلق.

* * *

هجرت تسكعي.. في الشوارع والبحث عن عيون متلصصة في النوافذ أو الأبواب الموارية كما هجرت مقاعد الدراسة وأخذت أبحث في الصحف والمجلات عن إعلانات الوظائف لعلي أجد وظيفة تناسب مؤهلاتي المتوسطة ولا شيء آخر، أما أشعاري فاكتفيت بما كتبت وأخذت كل مساء أقوم بنسخها في دفتر جديد، احترت في اختيار اسم مناسب لها.. وكذلك لم أستطع تحديد.

صيغة الإهداء وإن قمت بكتابة مقدمة هي صورة طبق الأصل لحياتي التي لا أدري كيف كانت..

* * *

أحيل والد سحر إلى التقاعد فعاد إلى الطائف ولكن لم تكن معه حيث أنها تدرس في الجامعة وقد تركها مع والدتها ليصافحني. كل مساء يطلب مني مساعدته في الحصول على تلفون.. لقد كانت معه أرقام كثيرة يقوم بنشرها كل مساء في غرفتي ويأخذ التلفون في حضنه ثم يدير القرص أكثر من مرة يتحدث كثيراً مع أناس لا أسمع سوى صوتهم فأتجاوزه محاولاً التركيز في متابعة ما يقدمه التلفزيون أو مواصلة القراءة في

كتاب..

ـــ لقد قالت والدتك إنك تبحث عن عمل..

ـــ أجل ..

كانت لحظة .. توقف فيها البحث عن رقم جديد وخرج بعد أن أعياه العثور عليه. وفجأة رن التلفون، كان أحدهم يطلبه فلحقت به ولكن لم أعثر عليه في الشارع. لقد اختفى فعدت وطلبت من المتكلم معاودة الاتصال بعد نصف ساعة، وخرجت أبحث عنه، واتجهت إلى الدار التي استأجرها في الشارع الثاني.

ولم أعثر عليه .. ولكن ما أن تفوهت باسم المتكلم حتى صرخت زوجته..

ـــ انه أخي..

وطلبت من أطفالها البقاء في الدار لاشعار والدهم بذلك ولحقت بي. دخلت غرفتي حيث يقبع التلفون منتظرة أن يتكلم الجهاز، أما أنا فقد دخلت إلى المطبخ أبحث عن والدتي فلم أعثر عليها واتجهت إلى غرفتها فوجدتها نائمة فأخذتني الحيرة وسمعتها تتحدث وعدت إليها كان وجهها الناصع البياض والذي أشاهده لأول مرة ينبئ عن جمال باهر.. فتسمرت في مكاني.. ولم ألاحظ أن المكالمة قد انتهت وأنها أخذت تتأملني..

ثم نهضت من مكانها.. لم أتحرك من مكاني في فم الباب وشعرت بالارتباك.

ـــ شكراً .. لقد وصل أخي بالسلامة.

وشعرت بأنفاسها قريبة مني ووجها الذي اختفى خلـــف غلالتها السوداء الرقيقة يترقب.

وخرجت لتلتقي بزوجها أمام الباب الخـــارجي وسمعتـــها تقول له كان أخي.. لقد وصل بالسلامة ..

وأخذ يصرخ منادياً.. وخرجـــت ووجـــدتها تقـــف إلى جواره. وقد زرعت ابتسامة انتصار صغيرة على شفتها.

ـــ لقد وجدت لك وظيفة..

ـــ أين ..؟

ـــ هذا مظروف به كل المعلومات وعليه اسم الجهة التي سوف تغدو أحد موظفيها..

* * *

كان العمل لذيذاً شعرت بأن لي كياناً جديداً وإن كـــان المكتب الذي أجلس خلفه متداعياً بعض الـــشيء ومـــع ذلـــك لم أحاول تغييره أو مطالبة إدارتي كما أوعـــز لي زملائـــي بمكتـــب جديد.. وقطعت صلتي بكل من أعرف، انني الآن إنـــسان جديـــد رغم أنني لم أغادر مدينتي.. ذات الأشباح. ولكن أفرح عندما أطل من الاتجاه الغربي عبر الجبال بعد غروب الشمس عليها وقد شعت أنوارها فآخذ في تأملها وقد انزرعت في مقلتي دمعة حزن لم تفارقني

منذ كنت طفلاً أذهب إلى المدرسة حافي القدمين بثوب قصير وغترة متهرئة هي بقايا أحد الجيران.. كانت الخواطر تتوارد في داخلي كشريط سينمائي أنا أحد أبطاله ولكن في حكاية لم يشاهدها أحد حتى الآن لإنسان فرغ جوفه من كل شيء لم يعد يختزن شيئاً مما حوله وإن كان هناك خوف من مجهول يجعل من الأحداث صوراً باهتة هي صدى لحادث وقع أيام الطفولة لا يدري ما هو ...

* * * *

الدوار

أشعة الشمس تتسرب في قوة منسلتة فـــوق الـــرؤوس العارية تزرع الحياة في أضابير الكون المنتعش من حمـــى موســـيقي الصخب ذات الإيقاع الإفريقي الشنيع راسمة لوحات جديدة المعنى تقدم وفي جو مشبع بالعرق ورائحة التبغ الهافاني المعتق؟.. مزكمـــة الأنوف التي أخذت تحمر كل منها بفعل كثير من الـــدوافع عـــدا الكلام. الذي لم يستطع الهمس المفرد أن يتجاوز الـــسور المحكـــم عليه.

كانت الأضواء الخافتة والمختفية خلف الستائر نهاية ليلـــة موبوءة، والتي اختفت مع بزوغ شمس أغسطس المحرقـــة لترســـم حول العيون ظلالاً داكنة، وخطوطاً تفضح سني العمر التي مـــرت دون حدث يذكر سوى هذه اللحظات التي بدأت منذ أربعة عشر شهراً عربياً.

تواجهنا أكثر من ألف لحظة شك، ودمامل أخذت تـــتر قيحاً ذا رائحة نتنة. لفعته صور للجفاف المحيط بالعـــالم أخـــذت توزعها وكالات الأنباء المدفوعة الأجر في مرحلة تـــشويه متعمـــد لعالم أخذ ينفصل بقوة من العالم الجديد، ليغرس في التربة بذور حياة جديدة أخذت معاول الهدم تسقيها بمواد قاتلة لتقف عـــن النمـــو وتكوين الظلال المتسربة تحت لواء حياة هانئة.

ولكن الأضواء الخافته غرست رغم شاعريتها في الأعماق صوراً لبروتس وخنجره الذي يقطر بدم الخيانـــة والعفـــن. وهـــو يضاجع زوجة قيصر التي أخذها الحزن فلم تجد وسيلة لقتله سوى أحضان بروتس والذي رمى فوق بلاط الممر المـــؤدي إلى غرفتـــه بخنجر الجريمة فتحاشى الخدم إزاحته من مكانه، فكون الدم اللزج صورة لم يستطع دافنشي رسمها رغم محاولاته الكثيرة والتي وقـــف فيها آلاف الساعات أمام قطعة من القماش المشدود فوق حامـــل الرسم الذي نصبه فوقها.

أخذت تخطر بثوبها الأحمر ذي الأشجار الغريبـــة الاســـم أمامه وقد أمسكت بيمناه لترشده إلى غرفة الاستقبال التي دخلـــها دون أن يخلع حذاءه، وطلبت منه الجلوس على الأريكة ثم خرجت وأغلقت الباب وراءها. لم يكن في الدار سواهما إذ لم يكـــن هنـــاك أحد كما أخبرته في الهاتف. وهو كان يجلس وحيداً في الدار.

كانت الطريق الطويل الملتوية تسير أمامه بهدوء رغم مـــا

يتعامل في داخله من أفكار، حاول إعدامها قبل أن يصل إلى المنحني الذي يقبع فيه دارها.

انها المرة الأولى التي سوف يحمل في سيارته امرأة غريبة تعرف عليها من خلال الهاتف.. أوقف عربته بالقرب من الدار، وأصلح من وضع كوفيته وغترته على رأسه، وتأمل الساعة التي كانت تشير إلى العاشرة صباحاً. وتلفت حوله باحثاً عن ظله الذي اختفى الآن وهو يجتاز الشارع المرصوف.

عقارب الساعة جاثمة لا تتحرك وحواسه المشدوهة تدعو إلى الضحك.

وفجأة أخذ يضحك .. واهتز المقود بين يديه.. وأخذت عتاب تضحك ثم ألقت برأسها فوق كتفه. إنه الدوار قاتله الله عاد مرة أخرى وجحظت عيناها ثم أسبلتهما. وران الصمت فوق الجميع بينما كانت خطوات مترددة تصعد سلم الدار ثم صوت رجل يطلب ماء بارداً، رغم الصمت المطبق كرر الطلب.

وتنبهت عتاب فقفزت من مكانها متجهة إلى باب الغرفة لتواجه بالرجل يتجول في الشقة التي ترك بابها مفتوحاً..

ـــ ماذا تريد..؟

ـــ ماء بارداً..

ـــ لماذا لم تقرع الباب..؟

وطلبت منه مغادرة الشقة وأسرعت إلى الثلاجة

وأخرجت قارورة ماء مثلج ولحقت به إلى الباب الخارجي وعادت مرتبكة فوجدت إبراهيم مسربلاً بالعرق..

ـــ لقد مت..؟

كانت المغامرة كبيرة والبون شاسعا. رجل غريب في دار لا يوجد بها أحد. لابد أنهم يراقبونه. لقد كان للعيـــون الملتـــصقة بالجدران والتي أخذت تتابع خطاه منذ أن وجد في عتاب أحـــلام ماض دفنه الواقع المر ملجأ يهرب إليه كل يوم من خلال الهـــاتف. تمسك به بالجرم الملعون الذي حاربته الأديان. وسنت الشرائع لـــه ألف حكم للاقتصاص من مرتكبه..

كانت المرة الأولى التي يحاسب فيها نفسه من خلال مكان الجريمة ومقدار التصاقه بها. رغم أنها ليست المرة الأولى التي يكون فيها متهماً أمام أعماقه، إذ كثيراً ما كان يشكل مثل هذه المحكمـــة ولكن في لحظات يبتعد فيها مع نفسه عن العالم الموبـــوء، يتحـــدث فيها كثيراً عن مراحل وهمية وصل إليها ووقـــف الواقـــع أمامهـــا كجبل من الصلب الذي لا تنفع فيه مخالبه رغم سمكها أو دموعـــه التي تشبه النار التي تحرق كل شيء ..

ونهض من مكانه وهو يتأمل الـــساعة الـــتي لم تتحـــرك عقاربها وأخذ طريقه إلى الباب..

وعتاب تسير خلفه.. خرج متلفتاً حوله.. كـــان يـــسير بدون ظل في الشارع الممتلئ بنور الشمس. فشعر بـــالحزن وهـــم

بالعودة للبحث عن ظله ولمحها واقفة أمام الباب، كانت تؤشر بيدها مودعة.

وتذكر منذ متى وهذه الكف مغروسة في مكانها تهتز معلنة عن تحرك خطوات مركب الوداع. فتصلبت أقدامه في الأرض التي أخذت تشده إلى الأسفل في مرحلة عودته إلى الواقع بينما كان رجل عجوز يقترب من الباب الموارب الذي انغلق فجأة... عندما حاذاه أخذ الرجل يتأمله وهو يتجاوزه واقترب من الباب وهو يدخل يديه في جيب ثوبه لإخراج مفتاح أدخله في قفل الباب الذي لم يقاوم اليد المعروقة ثم انغلق مرة أخرى وقد ابتلعه المدخل.

وتلفت حوله فإذا بظله يقف إلى جانبه. ورفع رأسه متأملاً الدار المكونة من دورين ولمحها في نافذة غرفة الجلوس حيث كان وأخذت تؤشر له بكفها أن انطلق وقد قطعت اهتزاز الوداع. فنسي أنه كان يبحث عن تاريخ اليد المزروعة للوداع. لتصفعه يد أخرى مطالبة في خوف أن يختفي.. وسار الظل معه حتى ركب العربة.

* * * *

مقاطع من مرحلة العدم

المقطع الأول:

وقف الخامس من أكتوبر .. على ناصية الطريق يبحث عن حافلة النقل الجماعي.. فإذا به يواجه بصمت مريب يعلن الموقف الذي معه توقف جريان الدم في عروق المشاة.. وراكبي العربات.. والواقفون أمام واجهات المحلات.. وأمام مظلات موقف الترام.. فأصبح الجميع.. كتماثيل الشمع مفتوحة الأعين والشفاه على كلمات كان يجب أن تقال وإذا بها مبتورة.

المقطع الثاني:

وقف كمال.. يتلصص على الجميع من نافذته الصغيرة فوق سطح إحدى العمارات الشاهقة التي لم يجد فيها مكاناً لطالب عمل قدم من الريف ذات يوم.. استباح السيل فيها أرض والده

فأخذ معالمها ووجد فيها شيخ الجماعة امتـــداداً طبيعيـــاً لأرضـــه فاستولى في المساء على نصف المساحة.. وترك المكـــان الـــصخري الذي لا يستفاد منه.. ولكن كانت الإرادة قوية إذ حاول والـــده إعادة تقويم الأرض وإزالة الصخور فلما كان لـــه ذلـــك ادعـــى الأهالي أن الموقع طريق عام.

ـــ إنها قادمة ..

كانت تحدثه بالتلفون بعد أن شاهدها مراراً مـــن نافـــذة غرفته في العمارة المقابلة.. تقوم بنشر الغسيل في البلكونة أو تقـــوم بتنظيف الغرف .. أو في المطبخ عندما تكون نوافذه مـــشرعة.. ولم يشاهد سواها في العمارة التي تحوي أكثر من مئة شـــقة ومتـــاجر ومواقف سيارات..

ـــ لن تتأخر ..؟

عرف رقم هاتفها فأخذ يتصل بها مـــن تلفـــون العملـــة المنصوبة في الشوارع .. وأخيراً قرر أن تكون له..

المقطع الثالث:

شاهد كمال توقف الحركة في الشارع من مكانه. فأخرج منظاره المكبر من تحت حشيته وأخذ يتأمل الشارع ويدير عدسات المكبر كل شيء هادئ حتى السيارات التي كانت تمـــلأ الفـــضاء برائحتها.. وتعدم الوجود بأبواقهـــا المزعجـــة تقـــف في وســـط

الشارع..

ولمح الخامس من أكتوبر .. يراوح بين قدميه وقد أعياه الانتظار تحت مظلة النقل الجماعي.. فاستغرب عدم وجود آخرين معه .. إذ أن مظلة الوقوف في مثل هذه الساعة تكون مزدحمة بالرجال والنساء والصبية منهم من يقطع الوقت بقراءة جريدة.

ـــ لماذا كل هذا الهدوء..؟

وقفز من مكانه.. أخذ ينزل سلم العمارة متناسياً باب غرفته مفتوحاً.. برأس مكشوف وقدم حافية.. وأخذ يتلفت حوله وإن كانت وجهته المظلة.. التي ما أن وصلها حتى وجدها.

المقطع الرابع:

اهتز كمال من الموقف .. فأخذ يعود في خطواته إلى الوراء وتذكرها. إنها الآن في طريقها إليه لقد تجاوزت موعدها بنصف ساعة.

وأمام العيون المشنوقة دخل العمارة التي تسكن بها وصعد السلم انه يعرف رقم شقتها.. وضغط زر الجرس بعد أن رتب الكلمات التي سوف يقولها إذا كان من يفتح الباب شخصية أخرى.. وطال انتظاره.. فرفس الباب بمقدم قدمه فانفتح ودخل الشقة بهدوء وأخذ يتجول..

ـــ لا يوجد أحد ..

رجع صوته إلى أعماقه فشعر بالقشعريرة تسري في جسمه وأخذ العرق ينسكب على وجهه واجتاز الحجرات حجرة حجرة حتى ولج المطبخ كل شيء طبيعي وعاد إلى الباب الخارجي وتذكر شيئاً فدخل غرفة النوم وتأمل صورة المرأة المعلقة فوق السرير.

ـــ إنها امرأة أخرى.

الصورة مختلفة .. وفتح ألبوم صور فوق طاولة في ركن الغرفة وأخذ يقلبه.

المقطع الصفر:

غادر كمال الشقة وأخذ يترل السلم بينما الخامس من أكتوبر يجتاز الشارع وقد أمسك بيد هيفاء التي وجدت فيه ضالتها.

عاد كمال إلى شقته وأخذ يقلب ألبوم الصور من جديد. وفجأة عادت الحركة إلى الشارع وأخذت الأصوات تمارس عملها كالمعتاد.. فأسرع إلى النافذة .. ومد يده إلى المكبر فاصطدمت بورقة كانت تحته..

لقد وصلت وانتظرتك .. وصدفة لمحتك تدخل شقتنا متلصصاً لقد خدعتني.. هيفاء..

ألقى بالورقة على الأرض وأخذ يسحقها بقدميه

المقطع صفر مكرر:

خرج كمال من غرفته وقد شعر بألم في كعب قدميه من جراء سحقه للورقة الملعونة وبينما هو يجتاز بوابة العمارة الكبيرة إلى لجة الشارع. كانت هيفاء تترجل من سيارة فارهة وقفت غير بعيد من العمارة التي يسكنها بعد أن تلفت حولها وقد ارتدت فستاناً جديداً وفوق كتفها حقيبة يد ذات لون فاقع.

* * * *

الخوف لا يموت قتلاً

موبوء أنت تترسب في أعماقك جراثيم الكون ومع ذلك ها أنت تسير بشكل جيد. تأكل بانتظام ثلاث مـــرات في اليـــوم. تذهب إلى العمل في سيارة فارهة وفي المساء تجلس إلى أصـــدقائك يأخذكم الحديث يميناً وشمالاً إلى ما لا نهاية. حتى يستوطن الحزن في أعماقك فتأخذ في التفكير غير المجدي وفجأة ترفع صوتك مترنمـــاً بأغنية تسللت إلى داخلك عنوة حتى تتز الغيوم وتنقشع الهموم..

ـــ سامي.. لا أعرف ماذا أقول إنني خائفة.. خائفة.. فأنا زوجة مهجورة.

ـــ ولماذا الخوف.. كم قلت لك كوني قوية صلبة. أنـــت سوف تكونين حياتك الجديدة إذا استـــسلمت للخـــوف كانـــت الهزيمة.

ـــ أجل ..

ـــ وأنا أريدك منتصرة دائماً. حتى تتقنين دورك ويحـــس من حولك بوجودك.

تذكرت الصفة كما تذكرت الحديث وأنـــا في طريقـــي المعتاد عائداً إلى الدار الصفة عمرها ألف عام اهتم أناس كـــثيرون بها. فأخذوا يواجهونني بها في كل مكان يكتبها الأطفال شـــعارات على جدران المنازل، والمسافرون فوق اللوحات الإرشـــادية الـــتي يعبرونها نحو هدفهم. بكل غباء وجنون حتى كانـــت الاستـــساغة المجروحة بشظايا من حزن تكون في زمن طفولة يتيمة وفقر مـــدقع ورغبة في التكون.

أما الحديث فقد تواجد أثناء لحظة تسللت فيها الحياة إلى الغابة المهجورة فكان المطر الذي تأخر قدومه حتى العام الأربعـــين، الذي أنزرع فيه الشيب في أماكن متفرقة من شعر رأســـه وذقنـــه وشاربه رغم المطاردة المرهقة.

الساعة تشير إلى الحادية عشرة ليلاً كل ما حوله هـــادئ يقف أمام باب أحد الأصدقاء ولمحها فكانت البداية تحمـــل كـــيس النفايات تهم بوضعه أمام فتحة الباب ما أن لمحته حـــتى تراجعـــت حياء. فلما شعرت أنه لم يتلفت لانشغاله بقرع البـــاب خرجـــت لوضع كيس النفايات وهنا أخذ يتأملها محاولاً تكوين صورة.

وشعرت بنظراته، أحست أنه يتأملها فلم تبال.. واصلت عملها (وإذا برغبة تغرز في أعماقي تدعوني للتحدي) هكذا قالـــت

في أول اتصال هاتفي.. البداية منها عندما عرفت كثيرا عنه من جارتها التي تمت له بالقرابة. لم تكن حينذاك زوجة مهجورة إنما امرأة لا كيان لها تفتقد أمراً هاماً لا تدريه غاب عن ذهنها رغم وضوحه في تصرفات خالد زوجها الذي تزوجها عن حب حيث كان اللقاء على مقاعد الدراسة في أرض الغربة ليعودا مؤهلين وزوجين في الوقت ذاته ويواجه بعاصفة المطامح أمام جدار هائل تم بناؤه من الأسمنت المسلح تخلت عن عملها. توقفت عن الهروب لتقع في بؤرة النسيان والإهمال.

تكرر الاتصال الهاتفي. يحمل الشكوى يواجه الحياة وشاركتها مأساتها أخذت أشكو همومي التي لم تكن بالنسبة لها شيئاً وأثناء ذلك طلبت منها أن تكون قوية لتواجه الحياة. فعادت إلى عملها وهجرت بيت الزوجية للإقامة مع أسرتها. غدا الشارع مهجوراً والطريق طويل.

الساعة تشير إلى السابعة مساء وإشارة المرور التي أمامي صفراء. ترددت في تجاوزها فأخذت اخفف من سرعة السيارة، وتتجاوزني سيارة بيضاء ما أن اقتربت من الإشارة التي تبدلت حمراء حتى توقفت عنوة. وأقف بمحاذاتها من الجانب الأيمن لم أهتم بمن فيها أول الأمر إنما شعور غريب دفعني لتأمل من بداخلها وإذا هي بها. توقف الدم في عروقي. تأملتني قليلاً ثم أخفت وجهها بيدها. الدوامة هائلة وقائد العربة يتأملني بقسوة. أخذ الدوار

يذيب الصور التي أمامي ويمسح من ذاكرتي انتظار الضوء الأخضر وأبواق العربات التي خلفي يرتفع صوتها في انفعال.. تحركـــت في هدوء بينما انطلقت العربة البيضاء تسابق الريح.

ـــ سامي انني مراقبة أخشى من حولي.

ـــ وماذا تخشين إذا كنت قوية..

ـــ انهم يلاحقونني .. يستغلون خوفي..

ـــ الخوف أنت سبب تكونه في أعماقـــك .. اطرديـــه .. كوني حريصة على إظهار اعتدادك بنفسك ومكانتك بين أســـرتك وأصدقائك.. لا تشعريهم بأنك بحاجة لهم بقدر ما هم بحاجة لك.. لا تجاوزي المعادلة الصعبة..

كانت المعادلة الصعبة أن أقرر أنها هي بذاتها امرأة العربة البيضاء. فأوقفت السيارة أمام هاتف العملة وأخذت أديـــر أرقـــام هاتفها وقبل أن أصل إلى الرقم الأخـــير توقفـــت عـــن المتابعـــة واستعدت قطعة النقود من الفتحة المخصصة لها وعدت إلى العربة وقد كساني هدوء غريب.

* * * *

الغريب

* يونس أنت نشاز في مجموعتنا.. نعرف ماذا تقول ابتسامتك رغم العوامل الصعبة كما هي موسومة منذ ألف عام إذ أنت ذات أخرى صنعت من بذرات ومواد غير الذرات والمواد التي كونت الجميع. لذا لم يعد لك مكان بيننا ونفضل أن نتساءل لماذا تأخرت عن الحضور. وأن يحتل مقعدك آخرون وآخرون من أن تكون معنا ..

* يونس اليوم هو الثالث عشر من الشهر الحادي عشر الهجري، الساعة تشير إلى التاسعة وأنت وحيد تحدث ذاتك المهزومة. هل تتذكر متى كانت الهزيمة.. هل عام **48** يدل على هويتك أم **67** هو النسخة الأساسية لتكونك وشعورك. أنك وهم يتلاشى كل يوم ويطل كل يوم..

* يونس. قبل عام **48** كانت الهزيمة القاسية. لقد

انتحرت دليله. ألقت بنفسها في بئر مهجورة في أطراف القرية هرباً من نظرتك الهادئة وابتسامتك الصغيرة، الجميع يذكرون ذلك.. كما يذكرون ليلة زفافك واقترانك بها وقدوم أول طفل وكان ذكراً أسميته إيناس لعله يرسم الأنس في شوارع القرية الرملية وبيوتها الطينية. غير أنه مع قدومه توقف المطر. وقررت الحكومة اختيار طريق آخر لرصفه يوصل الميناء بوسط البلاد عبر قرى أخرى تمكن أهلها من تذليل العقبات بما لديهم من نقود ومغريات أخرى. وهنا كان موت دليلة لا أحد يدري مرد ذلك وأن سرت شائعة خبيثة عن علاقة بينها وبين سائق شاحنة طالت غيبته ولم تستطع إغراءك على الانتقال إلى مكان آخر لعلها تجده.

* يونس. أنت منذ وطئت قدماك المدينة ووجدت العمل الذي تبحث عنه لم نفهم حتى الآن سر الهزيمة في صمتك وديمومة الابتسامة الصغيرة التي لا تختفي تراك إنساناً مشوهاً.

* يونس. هناك حديث غريب يقولون إنك تعرفت على فتاة سحقت كل مقاومتك وصلابتك.. أخذت بمجامع قلبك انهارت مقدمة كل شيء في أول لقاء تم بينكما. ثم أخذت تتراجع محاسبة نفسها على ما أقدمت عليه شاعرة بالذنب نحوك. وجدت أنها ضئيلة أمام مكنوناتك فأخذت في التلاشي راسمة لنفسها طريقاً آخر لعلها تصل إلى شيء من أسرارك الإلهية إنما في النهاية انتحرت بعد أن أفرغت في جوفها قنينة كاملة من دواء مهدي يعطى لمن

يصابون بنوبات صرع أو تشنج..

* يونس. أخذ مكانه المعتاد في زاوية من غرفة الجلـــوس وقد تناثرت حوله صحف الصباح وبعض الأوراق البيضاء ومذياع صغير أسود بينما يتسلل إليه صوت تلفزيـــون الجـــيران وأبـــواق وفحيح عربات في الشارع ووقع أقدام مارة يجتازون الـــشارع ثم أخذ يغير من جلسته شيئاً فشيئاً أغلق المذياع.. ألقى القلم جانباً.. أخذ يتأمل غلاف مجلة أدبية وصلته مؤخراً بالبريد.

أصبح يونس نائماً على ظهره يتأمل سقف الغرفـــة. ران صمت عجيب على المكان. أخذت ندف من الـــضباب الأبـــيض الخفيف تملأ المكان. الضوء يتلاشى .. رائحة عبقة تملأ المكان. عينا يونس تتوقفان عن الدوران. أصبحتا زجاجتين .. أطرافه توقفـــت عن الحركة .. فمه مطبق يبدو على شحمتي أذنيه أنهما محتقنتـــان. ضم يديه على صدره .

(شهادة:)

يقال تأخر يونس عن العمل لأول مرة في صـــباح اليـــوم التالي. وحيث أن نسخة من مفتاح الشقة التي يسكنها لدى أحـــد زملائه في العمل وجد بعد الظهر في مكانه ميتاً.

* * * *

الصَّمت حجارة تفتق

أقف على هام الدني. أعلن اسمك فقد يتعرف أحدهم عليك فيقوم بإرشادي إلى مخبئك. إني مسجون منذ عشرة آلاف عام في جوف اليم. أبحث فيها عن محارة. عن صدفة تتناسب وموقفك.

الرفض سوط عذب جاء مقتحماً المواكب. لأقف مشدوهاً أمام بوابة المدينة ودمعة صغيرة تنحدر فوق خدي. هنا ناسي.. هنا أنت إنما علي أن أعلن الرحيل حتى أعود إلى ذاتي التائهة في معابر العدم.

ـــ هل تأتين معه..؟

ـــ أنا..!

كان الانبهار في أول الأمر صادماً. وإذا بي أتقزم أتحول إلى هشيم أخذته الرياح لأتبعثر دون إرادة إلى الجهات الأربع ليكون الضياع وها أنت تطلين من جديد..

ـــ إنها مخطوبة..

ـــ أجل لقد تقدم لها من كنت واسطة لديه لمساعدتها في تحصيلها العلمي..

ـــ ولكن قررت مؤخراً الرفض..!.

وأخذت أضحك. أنه الموقف المومس الذي يسترق من وجودنا الضياء. أخذت أضحك لأنني كنت المصدر الذي خلق هذه المقولات. وكانت الإشاعة رجساً أخذ يلاحق من أعرف ومن لا أعرف ليقتحم الوجود غاز مقنع أخذ يوجه بندقيته في جميع الاتجاهات خاطفاً الأرواح دون تميز. وقد ارتسمت في مخيلته مذبحة العرب في فلسطين. واحدهم يعلن عن تبرعه بآلاف الدولارات لإنقاذ مجموعة من الفيلة في غابات أفريقيا المهددة بالموت من جراء الجفاف.

ووصلني صوتك. هذه المرة لم يكن حالماً ولم يكن به خدر. يسألني عن صحة الإشاعة. ولماذا طلبت منك الحضور. أسئلة كثيرة ارتسمت في مخيلتي أخذت أبحث فيها عن جواب صحيح.

ـــ عمر .. هل قرأت هذه القصيدة..!.

ـــ أجل .. أعجبت بها إنما الاسم. ؟ أشاهده لأول مرة.

ـــ محرر الصفحة لم يشر إلى ذلك.

ـــ وهل قرأت زاوية الردود في الصحيفة..

ـــ لم يرد ذكر .. الاسم..

كان الاسم حائراً. هل هو حقيقي أم مزيف لأن العمل

مكتمل بكل معانيه .. وإذا بصوتك يذكرني بذلك الاسم. وكنت فعلاً هو. لم يكن الاسم مستعاراً ولم يكن الموقف حلماً..

ـــ هل تأتين معه ..!

وكان قولك باندهاش. أنا المعول الذي هشم البناء الجديد..

وتقتحم الموقع جرافات مجهولة الهوية ورجال مقنعون أخذوا يهيلون التراب على الجثث المتعفنة ويهدمون أسوار المخيم المهجور.. أمام عدسات التلفزيون وأضواء آلات التصوير.. وآلاف من مراسلي وكالات الأنباء والصحف والإذاعة. وصوت جهوري يصف الموقف كلهم يسجلون كلماته. كلهم يتابع شفتيه وحركات يديه. ولم يلاحظ الجميع حينها أنه كان متصلب الأطراف، عيناه من زجاج لا تتحرك وأنها بدون بؤبؤ وأنه منذ نزل من عربته المكشوفة وهو واقف في مكانه. لم يغير وجهته لم يحرك قدميه.

ولم يلاحظ الجميع أنهم في انسجامهم غير المنظم تركوه بين الآثار تصفعه الرياح بقسوة بعد أن انهارت كافة المواقع. امتد النظر إلى البعيد الفضاء خال لم يعد لدينا سوى الصمت أعبث به بين لحظة وأخرى حتى أخذ الصداع يحطم رأسي بمناجله.

ـــ أنهم.. يحتفلون بها زوجة.

ـــ وأنا..

ـــ أنت ماذا..

ـــ انني الزوج القادم من خلف الفيافي من وقف على هام الدين معلناً عن اسمها..

ـــ إذا هو أنت..

ولم أعد أدرك ما حولي أخذت الأيدي تدفعني.. عـــصب أحدهم عيني بعصابة سوداء وقيد آخر معصمي خلـــف ظهـــري وأخذت الهمهمة تخفت وأنا أسير في طريق طويل رغـــم الحـــذر لم يعترضني مانع أو حاجز وتذكرت صوتك.. تذكرت الناطق الرسمي ذا الصوت الجهوري ... تذكرت أنهم يحتفلون بالزواج .. فأخذت أحرك يدي. فإذا بها حرة فأخذت أفرك مقلـــتي.. لم تكـــن هنـــاك عصابة.. لم يكن هناك ناس..

إنما ظلام دامس يطوقني وورقة بيضاء مكومـــة في يـــدي اليسرى عليها بداية كلمة.. لم تتكون ورنين هاتف يـــصلني مـــن أعماق بئر.

* * * *

حنان والساعة الثامنة

1 ــ توقفت الحركة في المدينة، كل ما هناك همهمات تجاوزت عنان الفضاء، انطلقت بعيداً حتى تجد مجالاً للتعبير عما يختلج بداخلها قبل أن يكون الانفجار .

هي أزمة أزلية ارتفع فيها سعر المحروقات، خاصة وقود العربات وأنابيب غاز المواقد حيث أغلقت مراكز البيع بعد أن استعان التجار برجال الأمن لتفريق المواطنين المتزاحمين هنا وهناك في نواح متعددة من المدينة.

2 ــ أخذت عربات مجهولة تغادر المدينة في أوقات متفرقة من رابعة النهار لم تلفت النظر، إنما أرتال العربات الراحلة في الظلام لم يأبه لها أحد وإن شدت انتباه العسس الأمين وحراس الليل.

3 ــ المحلات مغلقة، المدارس مفتوحة الأبواب، إنما لا يوجد أحد.

مستشفى المدينة الوحيد. يقول المرضى لم يزرهم طبيب أو ممرض منذ اثنتي عشرة ساعة رغم صراخ المرضى، عواميد النور في الشوارع لم تطفأ، وإن كانت المدينة أمضت ليلة نصف الأحياء مقطوع عنها التيار الكهربائي..

4 ــ أخذ السابلة يتساءلون خاصة وإن هواتف العملة والطوارئ المزروعة في الشوارع لا يرد عليها أحد.

5 ــ أطلت (حنان) من نافذة غرفتها كما هي العادة لتتأكد من وجود عربة زميلتها في الفصل وجارتها. ولما تأكدت من وجودها ارتدت عباءتها وحملت حقيبتها وانسلت عبر ممرات الدار. لم يلفت الهدوء المخيم ناظرها ولم يثر الصمت هواجسها. وفتحت الباب الخارجي لتصعق في مكانها. العربة مشتعلة من الداخل، كل شيء يحترق بهدوء، أدمت كفيها وهي تضرب الباب، وبح صوتها وهي تنادي.

6 ــ داخل العربة متفحم. إنما المثير للريبة أن هيكل العربة الخارجي سليم. اقتربت حنان من العربة وألصقت وجهها بالزجاج. كل شيء أسود، ضربت الزجاج بمقدمة رأسها، غرست أظافرها في وجهها غير مصدقة، لا تدري كم مر من الوقت. نظرت في ساعتها أنها تشير إلى الثامنة. (لا تدري هل الثامنة صباحاً أم مساءً) التفتت خلفها، باب المترل موارب وحقيبتها المدرسية على عتبة الباب وكذلك عباءتها تأملت

نفسها أنها بثياب المدرسة وقد تهدل شعرها، تلفتت حولها في خجل ثم أسرعت إلى العباءة وتلفعت بها، أصلحت من شعرها وثبتت الحجاب على وجهها أغلقت الباب الموارب وحملت حقيبتها.

7 ــ المدرسة تكتظ بالطالبات. هكذا يبدو رغم أن البواب لأول مرة لم يرد على تحيتها. أسرعت بالدخول، فناء المدرسة فارغ فاتح فاه. أخذت تعدو نحو مدخل البناء متجهة إلى فصلها (ثانية ثاني) كل الأبواب مغلقة. فتحت الباب بهدوء الحصة الأولى (تاريخ) ومدرسة التاريخ (أبله عواطف) لا ترتاح لها بعد أن اكتشفتها أمام إحدى دورات المياه تحتضن زميلة لها في شبق بشكل مقزز.

8 ــ فوجئت (حنان) بالفصل فارغ فتقدمت من طاولتها فوضعت عباءتها كالعادة داخل الدرج مع كتبها. وجلست على المقعد ثم نهضت من مكانها، اتجهت إلى السبورة، فقامت بمسح المسجل عليها وكتبت بخطها الجميل التاريخ والمادة والموضوع ثم رسمت خارطة شبه الجزيرة العربية والخليج والبحر الأحمر ثم أكملت خارطة آسيا وجزء من شمال أفريقيا راسمة أقواسا وسهاماً في جميع الاتجاهات وأخذت تشرح كل ذلك.

9 ــ انتهى الشرح. تأملت حنان ساعتها.. مازالت الثامنة.

10 ــ ألقت بالمسطرة التي كانت تستعين بها في الشرح على الأرض ثم شدت شعر رأسها وهي تصرخ..

: ــ أين البنات..

غادرت الفصل وأخذت تفتح بقية الفصول، كانت الفصول فارغة حتى غرفة المدرسات؛ دخلت فصلها بهدوء، ارتدت عباءتها وحملت حقيبتها بين يديها ثم خرجت من الفصل وقبل أن تغادر المبنى كان جرس المدرسة يرن معلناً انتهاء اليوم الدراسي والطالبات أخذن يتجمهرن في الفناء وأصواتهن تتجاوز سور المدرسة. بينما البواب ينادي الطالبات اللاتي حضر أولياء أمورهن..

11 ــ افتقدت حنان زميلتها، وأخذت تتفرس الوجوه التي حولها تحاول رصد ما تعرفه من ملامح زميلتها الخاصة، وإذا بالوجوه التي حولها (صورة واحدة) استدارة/ عيون زرقاء زجاجية/ أنف معقوف يتلألأ في وهج الشمس كبريق الذهب/ إنما هناك أمر غريب لا توجد أذرع للفتيات ورغم ذلك يتطاردن ويدفعن بعضاً بهدوء واتزان، أخذت تتأمل نفسها فإذا بها لها يدان وأخذت تتحسس وجهها وهي تعدو إلى غرفة دورة المياه حيث تنتصب مرآة قديمة يتزاحم أمامها الفتيات عند الانصراف فلم تجدها في مكانها إنما وجدت صورة مكبرة للوجه الذي يتقاسمه فتيات المدرسة..

12 ــ الشيخ إبراهيم أنه اسم والدها تعرف ذلك. قفزت حنـــان من مكانها وأخذت تعدو إلى باب المدرسة وهي تدفع الفتيات أمامها كأنها تدعوهن للخروج معها. خرجت إلى الشارع فلم تجد أحداً (البواب لم يرد على تحيتها هذه المرة أيضاً).

13 ــ أخذت (حنان) طريقها إلى الدار هي الكائن الوحيد الحـــي في تلك الناحية التي انتشر فيها غبار غريـــب شـــل حركـــة الجميع (إنسان/ حيوان/ جماد) أخذت تتلفت حولها في هدوء وقد تسرب إلى أعماقها إحساس بأن كل ما حولها يسجد لها.

* * * *

أحاديث تحتفل فجأة

ـ أ ـ

بين مغيب الشمس ومشرقها مسافة في الإمكان اجتيازها، هكذا قرر عندها طلب من خادمه أن يقوم بتجهيز حصانه لبـــدء رحلة قطع هذه المسافة ويتمكن بعدها من الفوز بقلب أجمل فتيات الحي .

مع انبثاق نور الصباح وعلى صوت صياح الديك وثغاء الضأن نهض نافع من فراشة وتلفع بغترته ثم تفقد مسدسه المشدود إلى وسطه وأمام باب الخدر تمطى قليلاً وهو يتثاءب ثم انحنى لحمل زوادته.

الطريق طويل، قرر أن تكون البداية المكان الذي تـــشرق منه الشمس ثم يأخذ في السير معها حتى يعرف أين تختفي ثم رفـــع عقيرته بالغناء كما هي عادته عندما ينطلق إلى الصيد أو في رحلـــة

طويلة بعيداً عن مضارب الأهل والعشيرة.

لم يكن يدري بهذه الرحلة أحد إذ لم يؤمن على سره حتى خادمه عبادة الذي يأتمنه على حياته لم يبح له بوجهته وإن همس في إذنه (سوف أجلب طلب أغلى الحلوات) ردد عبادة هذه العبارة بعد ثلاثة أيام من الرحيل وهو يداعب وجنتي سمر في الرجم الذي اعتاد سيده الجلوس فيه عندما تثور به الهواجس.

وفي العودة لمح بنت خال سيده أمام القليب تحاول رفع قربتها، اقترب منها وساعدها على حمل قربتها، أحس بأنفاسها تحرق أطرافه وهو يثبت رباط القربة على مقدمة رأسها وأخذ يتأملها (حلوة الحلوين) تذكر قول سيده إنما هل تكون عفراء هي أغلى الحلوات ربما وأخذ يتأملها وهي متجهة إلى مضارب الحي.

ان (أغلى الحلوات) مجهولة بالنسبة لعبادة؛ الذي أخذن يتواردن عليه كثيراً من فتيات الحي في الرجم أو في المفلى أو أمام القليب يسألونه عن سيده إذا احتار في الإجابة، إنما أخذت الأماني والأحلام تجول في داخله وقد غدا ملجأ الجميع. يترقب عودة الغائب فأخذ يشعر بمكانته متذكراً أنه لم يعد الخادم الذي يؤمر فيطاع إنما هو الآن الآمر الناهي في حلال سيده وبيته فأخذت أموره تتحسن وأحواله تتبدل فقام باستئجار بعض الرعاة لرعي الغنم واستحضر خادماً لعمل القهوة وتلبية طلبات أم سيده العمياء التي لم تشك لحظة في أمانته ووفائه لابنها لمعرفتها ما بينهم من

حكايات وقصص.

أخذت عفراء تتردد على الخباء لخدمة عمتها العجوز فلم يهتم أحد بجلوسها إلى ساعة متأخرة من الليل وإنما لاحظت ذلك صديقتها ميثة فأخذت تشاركها السهر بينما عبادة يتجول بين المضارب أو في الصحراء، وبعد أن لاحظ الفتاتين أخذ يعود للخباء في أوقات متقدمة محاولاً المشاركة في السمر. نهرته سيدته فأخذ يتلصص من (الشق) وقد أطرب هذا التصرف الفتاتين فكن يداعبنه بإفشاء سره.

مرت أعوام على نافع الذي أخذت الركبان تتناقل قصة رحيله بشكل مخالف للحقيقة كما منحت المسافر بركات وأعمالاً خارقة للطبيعة أخذ يرويها الشعار ومن يمر بمضارب البادية مما زرع الرعب في قلب عبادة الذي استطاع أن يتخلص من كل تبعية لسيده بعد زواجه من إحدى بنات الحي وهو يردد في داخله انها (أغلى الحلوات) وفرض على سيدته التي أقعدها المرض الانتقال إلى مسكن أخيها مع إيهام الجميع بأنه سوف يحمي الحلال.

نزح عبادة عن الديار.. رحل مع زوجته وكل ما يمتلكه سيده واختفى عن العيون مختاراً اسماً جديداً وقبيلة جديدة.. إنما لم يتمكن أحد من العثور على أثر له رغم المحاولات المضنية وأعلن بين القبائل عن سرقته لحلال سيده وغدره بمن عطف عليه واعتبره من أهل بيته.

ـ ب ـ

مما يتناقل الركبان أنه يوجد رجل صالح في بيت من الشعر النادر يقيم في طرف الصحراء بشكل عجيب من حيث الموقع والرجل الذي كل ما يعرف عنه الناس أنه رجل صالح قرر البقاء بعيداً عن الناس وكان بداية اتصالهم به مرض سرى بين القبائل فجأة فأخذ كل بيت يشد رحاله ويتيه في الصحراء على وجهه خوفاً من العدوى، وحرصاً على أهل بيته من النبذ إذا علمت الجماعة بأنه يوجد بينهم مريض.

إحدى هذه الأسر التائهة على وجهها لحت مع بزوغ الشمس فرساً يركض في وجه الشمس لم يهتم أحد بذلك إنما كلما تربعت الشمس في كبد السماء وضح موقع الخباء الذي لم يكن فيه أحد حين اقترابهم وفجأة إذ بالفارس يعود وقد تصبب العرق من الحصان ومنه فرحب به ودعاهم للاستراحة ولكن لظرف المرض امتنع الركب عن الضيافة شارحين الأسباب. وهنا أمرهم بالنزول وضرب مخيمهم بجوار مخيمه لأن عنده الدواء الشافي للمرض. وهكذا تكون حي جديد في طرف الصحراء ومن خلال شيخهم بحكم قيامه بمعالجة الجميع وشفاء أبنائهم على يده.. ورغم تساؤلهم عن انتمائه ولماذا هو مقيم لوحده وهل أحد يطالبه بدم وثار أو أن جماعته أهدرت دمه. بجرم شنيع إنما الأمر الذي لاحظه الجميع أنه

قبل بزوغ الشمس يركب فرسه ويأخذ طريقه إلى قلب الصحراء ويلمحه في بعض الأحيان الرعيان وهو يعود مسابقاً الريح في سباق أزلي مع شيء مجهول لا يدري الجميع كنهه، فكان سؤال يلوب في الأذهان وفي ليلة عرس تربع القمر في كبد السماء أخذ السمار حول النار يرددون.. الأهازيج ويتبادلون الأحاديث بينما كان عازف الربابة بين لحظة وأخرى يداعب أوتار معبود ته فيرتفع صوته متجاوزاً الفضاء في حوار أزلي مع الكون تربع صالح وسط كبار الضيوف وأخذ يتلفت متفحصاً الجميع كأنه يبحث عن فقيد ثم لمعت عيناه ببريق عجيب وهو يستمع إلى أخر أبيات المغني الذي صمت فجأة وقد انحدرت من مقلتيه دموع أخذ يمسحها بطرف أنامله مدارياً وجهه عن الجميع وهنا ارتفع صوت صالح:

سافر متجهاً إلى مشرق الشمس من أجل أن يسابقها ليصل قبلها إلى المكان الذي تختفي فيه كل مساء من أجل عيون معشوقته امتطى فرسه مخلفاً وراءه الجميع، اتجه إلى الصحراء مخترقاً طرقاً لم يطرقها أحد قبله وفي ثالث يوم بان عليه الإرهاق والتعب رغم أن الطعام متوفر والماء كأنه لم يمسه شيء منذ غادر جماعته، الشمس كانت قوية وهجها يثير الدوار والصحراء لا ترحم أحداً خاصة إذا كان وحيداً إنما قاومها بإرادته في الوصول إلى هدفه مهما كانت الصعاب وأخذ شيئاً أسود يقترب من بعيد لا يدري هل كان هذا الشيء متحركاً أم أن فرسه أخذته إليه كل ما في

الأمر أن الإرهاق أثر عليه فلم يعد يشعر بشيء مما حوله إذ أغمى عليه وأخذت الفرس طريقها إلى شيء معلوم وكأنها تستمع إلى إرشاداته كل ما يدركه أنه سمع صوت جلبة وميز صوت امرأة تردد غريب . غريب هذا كل ما يدركه . حتى فتح عينيه فلم يجد حوله أحداً إنما كان رأسه متوسداً زوادته وفرسه يقف أمامه. أحس بهواء لطيف فأخذ يجيل نظره حوله فإذا به داخل مغارة رطبة هواؤها منعش وأمامه كسر من الخبز ودورق ماء، إنما لا يوجد جنس مخلوق. فزمن مكانه وأخذ يتجول وإذا بصوت امرأة يعبر فراغ المغارة يقول:

ـ أنت رجل محظوظ.. أنت رجل محظوظ لا تعمل أمراً يفقدك هذه الميزة..

تكرر القول أكثر من مرة إنما شعر بأنه إنسان جديد لم يعد يتذكر شيئاً من ماضي أيامه سوى أنه قرر معرفة أين تغرب الشمس ومن أين تشرق. وركب فرسه مع الصبح وأخذ طريقه نحو هدفه.

وهنا تقافز الشباب حول النار لإثارة حماس الحضور للمشاركة في الرقص عندما أطل العريس في أبهى حلة فلم يعد أحد يهتم ببقية القصة ونهض صالح يتقدم الجميع مرحباً بالعريس وأخذ سيفه متمايلاً وسط الجميع..

— ج —

أحس عبادة بالوهن وفتور عام في جسمه زادته وساوس زوجته التي لم تنجب مطالبة بأن يقوما بزيارة الرجل الصالح الـــذي تناقلت الركبان علاجه الشافي واتصاله بالجن لفك العين وطلاســـم النحس فعزم على الرحيل إلى مضاربه لكن الخوف أن يلتقي بأحد هناك من جماعته، كان هاجس يقلقه فلم يفاتح زوجته بذلك لعدم علمها بفعلته الشنعاء حيث أوهمها أنه شريك في الأمـــوال وأنـــه يحتفظ بحقوق صاحبه حتى يظهر وأن هجره لجماعته إنما هو حـــتى يتوسط أحياء العرب لعله يصل إلى معرفة مصير رفيقه الذي اختفى منذ زمن طويل ..

كل هذه الهواجس كانت حاسراً تدعوه إلى التمهل إنمـــا رغبته في مولود يحمل اسمه دفعته ذات صباح إلى مطالبة الرعيـــان بالرحيل.

وأقام له سكناً في مكان ناء عن المساكن، وبعد أن ارتاح من السفر وبعد غروب الشمس تلفع بعباءته واتجه إلى خيمة الشيخ الذي لم يكن موجوداً كما هي العادة وجلس مع الجالسين يتبـــادل الحديث معرفاً بنفسه بعد أن لاحظ الجميع أنه غريب .

وإذا بصوت واهن لامرأة عجوز تتوكأ على عصا غليظة يقودها صبي أشعث يقترب مع ظلها الذي تجاوز المكـــان طـــولاً، نهض أحدهم واستقبلها أمام باب المخيم وأخذ يسألها عـــن طلبـــها

محاولاً مساعدتها بعيداً عن سمع وعيون الآخرين بينما وقع خطوات حصان تقترب توقفت بجوار المخيم وبينما العجوز تهم بالعودة من حيث جاءت قابلها شبح رجل يقترب فصرخت:

ـــ نافع... نافع

ووقعت على الأرض. انحنى صالح فوقها وأخذ يجس نبضها بينما يسأل الواقفين عنها ومن أين قدمت، ثم ألقى بعباءته فوقها مشيراً إلى أنها فارقت الحياة ثم طلب من الجميع العودة إلى أماكنهم وطلب من الخدم حملها إلى أحد البيوت للاعتناء بها وتجهيزها للدفن.

أفسح الجميع له مكاناً بينهم وعادوا إلى تبادل الحديث، وبينما هو يتأمل وجه العجوز الذي لم يفارقه منذ أن لمحها تلفظ أنفاسها.. ونداء «نافع».. «نافع» يتردد في داخله ثم أخذ يركز نظراته على عبادة الذي لم يتفوه بكلمة منذ جلس ولم يمط اللثام عن وجهه.

ـــ أهلاً بضيفنا .

ـــ أهلاً..

ثم أماط عبادة اللثام عن وجهه بعد أن تأكد أنه لا يعرف أحدا من الحاضرين وأخذ يسرد شكواه ويعرف بالديرة التي قدم منها وهو منكس الرأس.

ـــ طلبك متيسر يا عبادة ... وأنت اليوم ضيفنا.

فز عبادة من مكانه ورفع رأسه وأخذ يتأمل الـــشيخ .. تلفت حوله ثم غادر المكان دون إذن وأمام قبر الميتـــة بعـــد أن تم الصلاة عليها فتح صالح الغطاء عن وجهها ثم قبل جبينـــها ورفـــع رأسه متأملاً من حوله ثم أعاد الكفن كما كان ووارها الترب واتجه إلى فرسه وغادر الجمع الذي أخذ يتلاشى في الطرقات.

* * * *

الارتطام بوجه النافذة

تتناثر الطريق شظايا وينغرز في الأعماق نصل مسموم أخذت عوامله تعسكر داخل الجسم النحيل ويعم الكون ظلام دامس سرق حواس الكائنات فكان الصمت وحل الفراغ الدامي.

الريح هادئة وأوراق الأشجار الصفراء تقاوم السقوط، الساعة تشير إلى السابعة صباحاً، نسيم بارد يلسع الأجسام المتحركة في كل اتجاه ومذياع نسي أصحابه إغلاقه قبل النوم يصرخ (غداة غد يتم عقد الاجتماع الثاني للجنة المشكلة لدراسة احتمال فك الاشتباك ودفع الأطراف المتناحرة إلى احترام وقف إطلاق النار وخلق الثقة في نفوس الأفراد رغم تبادل التصريحات). محرك العربة يدار، يضيع صوت المذياع وأنا داخل العربة التي أترقب أن تستعد للانطلاق.

إنها كالعادة تقف في نافذتها تتأمل الفراغ، لقد تأكدت

مؤخراً إنها تنتظر خروجي كل صباح أكد ذلك تلصصي المستمر للنافذة قبل خروجي أو تأخري المقصود حتى أرى أثر ذلك عليها إنها تقف حتى تتحرك العربة وهنا تقوم بإغلاق النافذة دون حركة تذكر.

الهم يغترفني، أصول سدومية متآكلة تشرنقت فيها نفايات حشرات صغيرة تجاوزت انهيار الزمن فكانت حقائق الزيف المترسمة خطي انهيار الحياة. الهاوية تأخذني تزرع الخوف في داخلي إنما صوت غريب يصرخ باسمي يدعوني إلى الحذر والتوقف عن الانزلاق السريع. الصوت يقترب وأنا أفكر في مصدره، أخذت خطواتي تنتظم متدارك الارتطام بالنهاية المجهولة.. الصوت يقترب وظل طويل يعترض طريقي، حبل متين سوف يشطرني إلى جزئين وإذا بالصوت يمسك بيدي وانفرد الظل ليكون وسادة هوائية أخذت أتلفت حولي. وإذا بها تقف في نافذتها تتأمل الفراغ.

أخذت الانفجارات المشعة تحيط بالمكان الذي أقف فيه والمباني تنهار الواحدة تلو الأخرى، النافذة تتأرجح في مكانها كصورة داخل إطار كبير معلقة بخيط واه، أخذت الريح تهزها وهي مازالت واقفة تتأمل الفراغ. الدمار سد الطرقات وانهيار المباني بصمت غطى الفضاء غباره بينما نهر أحمر اللون أخذ يتكون متجهاً إلى المنحدر الذي أقف في نهايته بدون حراك والظل الطويل أخذ يتقلص لم يعد له وجود. أخذ صوت النهر يرتفع وهو يدفع أمامه

ما استطاع حمله من بقايا ونفايات أشعر بالأرض تحتي، تهتز وسرى البلل في ملابسي، شيء ثقيل اصطدم بي، أخذ يـــدفعني إلى مـــا لا نهاية تشبثت به حتى أبعده وابتعد عن طريقه، كان وجه النافـــذة ذا الشعر الذهبي والأنف الطويل والعيون التي تراقب الفراغ، اهتـــز كل شيء في داخلي وشعرت أنني بحاجة إلى البكاء.

انفلت الوجه من بين يدي مبتعداً متخذاً مـــساره بـــين الأشياء المندفعة داخل النهر، أخذت طريقي بعكس النهر، خطواتي شقت طريقاً سهلاً إلى قمة الهاوية، رفعت رأسي متأملاً الـــسماء.. مازالت هناك نجوم تتلألأ، ومازالت هناك نافذة واحدة مضاءة.

* * * *

الطّيف

1 ــ ترنحت جذلاً فتجاوزت خط العقل لتتمرغ في حميا التبــذل معلنة عن انصهار كامل في بوتقة العدم بعد أن تبدت الرؤيــا كاملة لتصل من ثم إلى مرحلة الانعتاق فأخذت تتصور ذاتها حمامة بيضاء في ساحة عامة تحط على إفريز نافــذة أو ذراع شاب أو تحجل أمام طفل في الثانية يحاول الإمساك بها أو تحط في أحضان حسناء افترشت أحد الأركان وحيــدة تترقــب موعداً لم يحن.

قال الرجل وهو يتأملها في انبهار: أنها صحوة الموت.

قال آخر: إنها الفرصة المهتبلة لارتشاف الشفاء.

قالت سيدة تنتصب بين الاثنين عليها مسحة من الجمال: إنه العته بكل صورة.

2 ــ تأملت العيون التي حولها واندست في الزحام مخلفــة عبقهــا

المسكر ليعود كل شيء إلى طبيعته قبل أن تترجل من عربتها ذات اللون الفاقع.

اثنان من مدمني التجوال في الأسواق. يجلسان فوق مقعد انتظار حافلة النقل الجماعي أخذا يتابعانها وهي تدور حول نفسها حتى تحكم لبس العباءة وتثبت الخمار الشفاف على وجهها زارعة الانبهار في الكون، لم تشملهم دائرة الحلول. فأخذا يتحدثان بما يهمهم.

ـ إنها جميلة..!

ـ هل رأيت حقيبة يدها..!

ـ تبدو في حالة غير طبيعية..

ـ ما رأيك..

نهض الاثنان، الأول أدخل يده في جيب ثوبه ولم يخرجها، أما الآخر فقد أدخل يده وأخرج سلسلة المفاتيح ليتأكد من مفتاح العربة.

أخذ الاثنان يعدوان للحاق بها مندسين في كل متجر محاولين كسر طوق.. التجمعات للاقتراب أكثر رغم التوجس والخوف من مراقبي الأمن ورجال الآداب . مر وقت غير يسير لم يبن فيه أثر للمرأة التي يبحثان عنها وقررا العودة إلى مكانهما الأول في انتظار خروجها.

3 ـ خرجت من السوق وبرفقتها رجل يحمل بعض الأشياء بين

لحظة وأخرى تتأمله مبتسمة ثم تأملت ساعتها وإذا بالسيارة الفارهة تقف فجأة ليترجل منها السائق ثم يأخذ الأشياء التي يحملها الرجل ثم يفتح أحد أبواب المقعد الخلفي لـــتجلس في هدوء ثم يطبق الباب وتنطلق العربة. أخذ الرجـــل يتلفـــت حوله منبهراً ثم تأمل ورقة الريالات الخمسة التي وضـــعت في يده، مظهره العام لا يدل على أنه أحد العاملين في المحـــلات التجارية أو أحد الحمال.. تأمله الاثنان القابعان فوق المقعد ثم اقتربا منه..

ـــ ماذا حدث..!

ـــ أين ذهبت ..

ـــ من ؟

ـــ المرأة التي كانت معي..

ـــ وهل كانت امرأة..

تأمل الاثنان مرتعبا ثم دس ورقة الريـــالات الخمـــسة في جيب أحدهم وعاد أدراجه. مد الآخر يده وأخرج الورقـــة مـــن جيب صاحبه تأملها ثم صرخ..

ـــ تأمل .. إنها صورتها..

وأخذ يقرب الورقة من وجه صاحبه الذي أخذ يبحـــث عن الصورة، فلما لم يعثر عليها تأمل وجه صاحبه وصرخ فيه..

ـــ يالله أن صورتها فوق خدك.

ـــ .....

4 ـــ امسك الاثنان بأيدي بعض كل واحد يشد الآخر في غضب وتجمهر القوم.

* * * *

المحاضر

أخذ يعد درجات سلم المنصة.. واحد.. اثنان.. وكانت الثالثة سطح المنصة التي تربع فوقها كرسيان وطاولة انتصب عليها لاقطان للصوت وكأسان من الزجاج الأبيض وقسطل ماء صغير فوق سطحه قوالب ثلج ملفوف بفوطة بيضاء.

جلس فوق أول كرسي ثم أخذ يقلب أوراقاً دسها تحت إبطه وهو يتجه إلى المنصة. طال تقليب الأوراق دعك جبينه بيده اليمنى ثم أخذ يتأمل الكراسي الفارغة المرصوصة أمامه.

(أخواني.. الأوراق بين يدي فارغة بمعنى أصح بيضاء. خالية من أي حرف .. أيها الأخوة.. لقد نسيت نص المحاضرة.. إنما في الذاكرة شيء مما كتبت فأرجو المعذرة.. إذا كان هناك إسقاط.. أو تقمص هفوة).

وصمت.. توقف عن الكلام .. وران الصمت لم تنبس المقاعد بكلمة.. تحرك قليلاً في مكانه وأفرغ قليلاً من الماء في

احدى الكأسين..

(أيها الأخوة.. منذ بدء الخليقة.. والإنسان يبحث عن مكانه المناسب.. و.. و..)

خرج من بين المقاعد طفل في الثالثة من عمره رث الثياب يطارد شيئاً غير مرئي وأخذ صوته الطفولي الجذل يملأ القاعة.. سحنته المعروقة تدل على أنه يحتاج إلى عناية فائقة في التغذية حتى يصبح سوياً.

شعر بالارتباك .. نهض من مكانه بعد أن توقف عن مواصلة الحديث. وهنا توقف الطفل عن الركض بين المقاعد تأمل الواقف على المنصة.. انفجر باكياً ثم اندس خلف أحد المقاعد وتلاشى .

أصلح من وضع عقاله.. ثم ثنى أطراف غترته.. وعاد إلى الجلوس .

(آسف لتوقفي عن الحديث ــ ضاحكاً إنما أين وصلنا في النقاط ــ آمل أن يساعدني أحدكم ..)

ران الصمت.. لم تكن هناك إجابة فورية..

(آه .... آه ... تذكرت .. أن المرحلة التي قطعها الإنسان حتى وصل إلى وقتنا الراهن.. تجاربه فيها أكبر من الزمن .. أو استيعاب المساحة المكانية فلو تلفتنا يميناً.وشمالاً.)

صمت وأخذ يتلفت يميناً وشمالاً ولاحظ أثناء ذلك أن

هناك بريقاً فوق الجدار الذي عن يمينه للقاعة.. أخذ يدقق لمعرفة كينونته .. أخذت تصغر فتحتا عينيه وتصلبت يده اليسرى فوق الأوراق بينما ارتفعت يديه اليمنى وهي تشير إلى مكان البريق الذي انفصل عن الجدار وأخذ يقترب ..

كانت عينين بشريتين مثلجتين. أخذت تتراقص فوق المقاعد وهديراً حاداً يملأ القاعة عند كل حركة تصدر منها. وفي وسط القاعة توقفت العينان عن التجوال.. وأخذت ذرات من الغبار تتكون متقاطرة من جميع الاتجاهات لتبرز فتاة جميلة التقاسيم في الثلاثين من عمرها ترتدي ثوباً أبيض فضفاضاً. وقد ربطت وسطها بحزام أسود وأخذت تتلوى راقصة.. ترسم بأقدامها الحافية على أرض القاعة وبين صفوف الكراسي خطوات متناغمة.. والهدير يرتفع بين لحظة وأخرى.

وضع رأسه بين كفيه على الطاولة .. وأخذ يتأملها في هدوء .. وتخلص من لحظة المفاجأة.

(أيها .. الأخوة..)

دفن رأسه في الأوراق التي بين يديه.. ثم غير وضع النظارة .. على أرنبة أنفه ..

(عندما احترق.. هذا الكون.. بعد وجوده الأول .. حل الطوفان الذي أنقذ البشرية من النهاية المظلمة).

رفع رأسه.. صوّب نظره إلى الموقع الذي ترقص فيه الفتاة

فلم يجدها وخيم الصمت على القاعة.

(كان التكون الجديد .. الذي معه انطمست معالم الحضارات القديمة.. لتكون حضارة جديدة.. ومن خلال السياق التطوري ما نحن فيه الآن .. إذ..).

هنا ارتفع صوت سيارة إسعاف.. وهمهمة أصوات لا تميز لنساء ورجال وأطفال.

ويرتفع بكاء وليد صغير. أخذ يتموج مع صوت منبه سيارة الإسعاف ويعلو على الأصوات المختلطة ويتجانس مع صوت مؤذن أخذ يردد... الله أكبر .. الله أكبر .. وواصل حديثه.

(إذ أن الإنسان لم يوفق في اختيار الطريق الحقيقي للانعتاق .. هنا كان التباين وكانت الحروب .. ومعها اندثرت أمم وثم قتل.. ثم قتل .. طفل في مهده .. طفل).

وانكب على الطاولة بقسوة الأمر الذي معه ارتطم جبينه باللاقط فانبثق الدم. مسح بكفه على جبينه وأخذ يتأمل بقعة الدم.. وأمسك بطرف غترته وبللها في الماء ثم أخذ قطعة ثلج من قسطل الماء ووضعها على مكان الجرح.

(أيها السادة.. لم يعد هناك مكان مقدس بعد أن استباح الإنسان ــ الآلي ــ كل شيء لم يعد في المعمورة مكان آمن.. إنهم يقتلون الزهور .. بأحذيتهم السوداء ذات الحدوة الحديدية .. يقول الشاعر .. الشاعر).

ويتحرك اللاقط الآخر المنصوب على الطاولة من مكانه في جلبة واضحة..

(هو يمشي والموت في خوانه.

عاثر الحظ بانتظار مماته.

شاحباً.

بائساً.

حزيناً كئيباً ...

واحتضار السرور في بسماته).

ويتوقف عن النطق .. فمه مفتوح .. كفه اليمنى مرفوعة إلى مستوى الرأس.. وعيناه شاخصتان في الفراغ وخط أرجواني اللون يتر من جبينه منداحاً على أنفه؛ وفمه المفتوح تخرج منه كلمات وحروف متناثرة أخذت تنداح نحو المقاعد كسيل لجب، أخذ يجرف ما في طريقه من أشجار .. وناس.. وحجارة في اتجاه غير محدد. ويرتفع تصفيق حاد.

أدلهم الظلام.. شمل القاعة هدوء غريب .. وارتفع وقع أقدام تسير.. أخذ الوقت يتلاشى وينبثق ضوء من سقف القاعة أخذ يتجول بين المقاعد ويبرز ظل إنسان طويل ويصل الضوء إلى المنصة. وإذا بالمحاضر يدفن رأسه بين يديه فوق الطاولة بشكل عادي كمن راح في.. سبات عميق..

* * * *

العزاء

من أنت؟

صرخت في وجهي وهي تنتحب، لا أدري سبب هـذه الثورة المفاجئة وقد كنا متفقين على كل شيء، وبعد أن انتـصبت أمامي فجأة وبدون قصد لا أجد فيها الهم الذي أبحث عنـه منـذ آلاف السنين وافتقدته بعد إدراكي بأن الحياة أمر سـهل تكونهـا ووجودها مجرد عبث يشارك فيه الجميـع دون تحديـد لهويـات ومراكز، وكل فرد بعد ذلك يختار لنفسه المكان المناسب أما عـبر الجماعة أو من خلال طموحه الذاتي.

كانت من ضمن طموحي الذاتي بعد فشلي الذر يـع في إيجاد رفيق مخلص يثرثر طول الطريق مكتفياً مني بتعليق بـسيط أو همسة عتاب وكلمة ملاحظة، ومن هذا المنطق كان اقترابي السريع وعدم توجسي أو خوفي بأن يكون هناك أحد.

همست بهدوء: أنا لا شيء في هذا الوجود بقدر ما أحاول

أن أكون هماً مشتركاً فكنت أنت الهم ذاتـــه. طفحـــت عيناهـــا بالدموع وفغرت فاها لتقول كلمات توقفت عـــن الخـــروج مـــن داخلها.

رفعت يدي وأخذت أمسح دموعها التي انداحت بغزارة، شعرت بوخز ألم في جانبي الأيسر تحاملت قليلاً على الألم ثم طوقت رأسها بيدي، اقترب وجهها من صدري ثم استلقى علـــى كتفـــي الأيسر حيث الألم وأخذت أعبث بشعرها المنطلق علـــى قفاهـــا. وأخذت أفكر في لا شيء، تلبد الموقف، لم يعد هناك ما أقوله وقـــد بللت دموعها ردائي.

مر وقت طويل ونحن على هذه الحالة، وفجـــأة شـــعرت بأنني بحاجة إلى التبول وأن استمر ينا على جلستنا هذه سوف أبلل ملابسي، رفعت رأسها عن كتفي وأخذت أتأمـــل وجههـــا وقـــد أسبلت أجفانها وكأنها ذهبت في إغفاءة رقيقة، وعنـــدما أحـــست بتململي فتحت عينيها وإذا بها مغارتين من الدم لم يكن هناك بؤبـــؤ أو مقل إنما مغارة فارغة من الحياة، شـــعرت بخـــوفي فأمـــسكت بمعصمي وطوقتني كلتا يديها.

: لا تخف، كن معي أنني أخشى الانكسار.

نسيت رغبة التبول، وتصلبت في مكاني أحاول الهـــروب من تسليط نظراتي على وجهها وشفتيها المرتعشتين، ورغم رغـــبتي في الهروب توقف قلبي عن النبض، ولم أسحب يدي من بين يـــديها

وشعرت بأنني بحاجة إلى مكان أمين أخفي فيه نظراتي عن المنظر المرعب الذي أمامي، أحنيت رأسي بين قدمي متأملاً حجري، ومدت يدها إلى رأسي، لم أجفل من الحركة وانقاد رأسي معها إلى كتفها الذي قربته بدورها حتى يسند رأسي، وتذكرت أنها بعد هذا الوضع فقدت عينيها بعد أن وصل رأسي لمكانه وخطرت رؤيا أخرى ولكن هي كانت تبكي، أما أنا فالحزن يطوقني حتى شل كل أحاسيسي فلم يعد بالتالي في رغبة للبكاء.

: هيا بنا.. لقد أظلم الوقت..

قالت ذلك ثم تحركت من مكانها ورفعت رأسي عن كتفها واتجهت بنظراتي إلى جهة أخرى وإن كنت أتابع حركات يديها وهي تقوم بجمع الأشياء المتناثرة حولها. ثم نهضت من مكانها وارتدت عباءتها ثم أصلحت الغطاء فوق وجهها..

تأخرت في النهوض بعد أن تأملت الفضاء الذي أصبح داكناً بعض الشيء وأشباح العربات وزرافات من الناس تجلس في أماكن متباعدة حولنا تعد نفسها للرحيل أما لحلول الظلام أو خوفاً من برد الشتاء.

الساعة تشير إلى السابعة مساءً، الهدوء مخيم على المكان وبي رغبة أحاول مقاومتها للتطلع في عينيها، ولكن أهرب بعيداً.

وقفت قليلاً قبل أن أنحني لطي الفراش الذي نجلس عليه.. وإذا بأنفاسها تلفح وجهي ويدها تطوقني.

: أمازلت مرتعباً.

وجهها يطفح بشراً وحيوية، وصوتها الهادي الآسر يملأ وجودي ثقة وإحساساً بالقرب ..

امتدت يدي لجذبها من خلفي حتى أواجهها فلم أتمكن من سحبها، وهنا استدرت في حركة سريعة فإذا بي أواجه بالفراغ لم يكن هناك أحد، أخذت أتلفت حولي، لم يكن هناك سوى عربتي والفراش الذي تناثرت عليه قشور حبات الفستق وأوراق ومجلات لا أدري متى أحضرتها.

عدوت نحو العربة.. لم أجد أحداً بداخلها، وشد نظري شبح يتسلق. الصخور مبتعداً، ما أن لمحته حتى اختفى. تصلبت في مكاني، أخذ البرد القارص يأكل أطرافي، وأخذت أتحسس وجهي لقد أصبح أملس بدون نتوءات شعرت أنني أصبحت بدون أنف أو محاجر للعين أو فم يتحرك فكاه.

أشعلت محرك العربة.. تأملت وجهي في المرأة الصغيرة المنتصبة أمامي ووجدت كل شيء طبيعيا. ثم نزلت لأجمع الأوراق وطي الفراش ثم فتحت شنطة السيارة الخلفية لوضع الفراش في مكانه المناسب.

: وهل ترحل بدوني.

كانت تقف خلفي وقد رفعت الغطاء عن وجهها ويداها على خاصرتها.. هكذا وجدتها بعد أن أغلقت شنطة السيارة

واستدرت.. إنها هي بذاتها.

اتجهت إلى باب السيارة الآخر وركبت، لم يكن هناك حديث نتبادله طول طريق العودة وإن كنت بين لحظة وأخرى أختلس النظر نحوها ونحن نحاذي مسجد ابن عباس كان أوج الزحام حيث أرتال السيارات تقف وتتحرك بهدوء ثم تقف وتسرب الملل إلى داخلي فأخذت أتأمل عقارب الساعة والتفت نحوها وإذا ـــ بالمقعد فارغ. تطلعت للمقعد الخلفي.. لم يكن هناك أحد وتحركت السيارات قليلاً وتحركت معها وأنا أتلفت أبحث عنها بين مقدمات العربات وزحام المشاة. وأمام إشارة المرور عدت طريقي مرة أخرى أبحث عنها فلم أصل إلى نتيجة رغم أضواء أعمدة النور واستطاعتي تمييزها أمام آلاف النسوة بطولها الفارغ ومشيتها المتميزة وطريقة احتضان العباءة ومررت من أمام باب المقبرة التي تقبع جنوب المسجد؛ كان الباب مفتوحاً وأناس يقفون أمامه.. أخذت أتأمل الوجوه فإذا بها هي كل الوجوه وجهها.

ترجلت من العربة رغم صراخ رجل المرور والعربات التي خلفي، وأخذت أعدو نحوها.

أجل كانت هذه المرة هي، وكانت أيضاً أحداقها مجوفة..

أخذت أمد يدي مسلما..

لم يكن هناك أحد سوانا..

* * * *

يوم آخر للحزن

هل أنا فعلاً بحاجة إلى كمية من الحزن حتى أعيد حساباتي، وأخفف من سرعتي، قد يكون في الأمر مغالطة، إنما الملاحظ أن حالة الوجوم أخذت تحتل مساحة كبيرة من بيدر أيامي.. لم يعد للفرح النصيب الكافي بعد أن كان المسيطر بعدته وعتاده على نمطي المتلهف بأن أكون في كل الثنايا بسمة رقيقة، رعداً هادراً، نداء يستحلب صديد الأيام.

تذكرت أنني وحيد حلم موبوء له أطراف كما الإخطبوط، عمياء تمتص رحيق الحياة من الأشياء التي تصادفها ثم تختفي.. بعيداً عن العيون والشك يقتلها، يزرع سهامه المسمومة في أعماقي ويكون السقم الأصفر وإغفاءة النوم.

تذكرت ذلك والطريق الطويل يحتويني في سفر آخر نحو التلاشي مبتعداً وصوتك يقول (إنها محاولة للهرب) تذكرت إنما

المرة الثالثة للهرب، لن أجزم بأنها محاولة لإنهاك قواي حتى أتقدم بشكل واقع ملموس بعيدا عن الأحلام التي أحلق معها هربا مما أنا فيه، أنهم يمتصون رحيق الزهور يعبثون بأزهار الحديقة ويطلقون الأصوات النشاز لقتل كل ما هو جميل، وها أنت تمارسين الدور ذاته.

ـــ أعرف .. لماذا الغياب..

ـــ وما أدراك ؟

ـــ وقوف.. رفيقاتك وحيدات ورحيلهن دونك ..

ـــ اني متعبة ..

ـــ وهل هذا التعب .. يدفعك إلى الهروب حتى مني ..

ـــ أجل ..! .. !

تردد صدى (أجل) في داخلي ثم طفح على السطح، لم يكن معي آخرون، إنما انتصب فوق المقاعد المحيطة بمكتبي، هياكل آدمية وأخذت الأصوات المحيطة ترتفع مجلجلة تناقش أمراً لا أدركه، وإذا بأحدهم يتقمص صوتك، يعلن بشكل افتزازي انسحابي غير الإنساني متخلياً عن مواقعي المتقدمة للغزاة الذين أخذوا يهدمون المنازل، يغتصبون النساء، يقتلون الأطفال، يقتنصون الأرض.

أخذت أتلفت يميناً وشمالاً أتابع الجماجم المتحركة فوق هذه الهياكل راصداً حركة كل فك ومتابعا ما يخرج من كلمات

وغبار، امتلأت الغرفة الخالية إلا مني بالغبار وقصاصات الورق والحروف والعبارات المتناثرة وأزيز رياح منتصف شباط تصفع واجهات الدور وتحطم أغصان الأشجار اللدنة..

ـــ لن أنتظر .. أكثر .

ـــ .....

ـــ لقد أصبح الموقف صعباً ..

ـــ وماذا بيدي .. أنت في حل من أي ارتباط.

ـــ وبهذه السهولة..

ـــ أبداً إنما حتى لا أكون سبباً في تعاسة الآخرين.

ـــ إذاً..

ـــ إذاً أعلن موتي للمرة الثانية وهذا الإعلان يعطيك حكم التمتع بالحرية الكاملة واختيار البعد الآخر.

الضجيج يرتفع والكلمات المتداخلة لم تعد تجدي بعد أن تباينت المواقف وأخذ الائتلاف يتفتت ويصبح محاوراً، كل محور يناقش قضية، جانبية بعيدة كل البعد عن قضيتنا ووقفت وقد وضعت كفي على أذني ثم أغمضت عيني وغادرت مكتبي . .

أخذت أزيح ما يعترض طريقي من نفايات؛ الطريق إلى باب طويل يحتاج إلى آخرين لم أحاول فتح عيني أو رفع يدي من على أذني مستخدماً كتفي وصدري ومقدمة حذائي، الاحتجاجات ترتفع والهيار الأكوام التي أمامي تصدر أصواتا مما يؤكد إنها بقايا أناس

مازالت فيهم بقايا ونبض..

وشعرت أنك بقربي أصـــابعك العظيمـــة انغرســـت في خاصرتي محاولة شد ذراعي اليمنى لا أدري ماذا كان الموقف فقـــط صوتك هو دليل قربك مني ارتفع الضجيج، تعاظم الوقت، شعرت أني بحاجة إلى فتح عيني لأرى ما حولي، لم يكن هناك أحد. الظـــلام دامس، السواد يلف المكان، مازالت سماعة الهاتف على أذني أعاود الاتصال والصوت القادم يقول لا أحد في الجانب الآخـــر. إنـــني وحيد ويدي تتصلب عضلاتها، أشعر بالخدر يدب في أطرافي، الدم يهرب، خاصرتي تؤلمني، إنهم يبكون، البكاء الحار يـــصلني شـــجناً، الظلام لا يسمح برؤية الأشياء، لا شيء في طريقي سوى البكـــاء الذي أخذ يقترب أكثر، يقترب أكثر .. يقترب أكثر ..

* * * *

الفهـــرس

البحث عن بقية
في انتظار الحافلة
أهازيج ميلاد جديدة
هروب
الزهور الصفراء
أوراق اليانصيب
رجل يبحث عن وظيفة
أوراق من يوميات امرأة عاملة
الليل الذكرى المرتخية
النار وأعياد الميلاد
الصورة
اللعبة
انثيال حلم شاهق
علبة العلكة
جراح ليلة فرح
الساعة الحادية عشرة
السلم
رباط لا يعني شيئا
قالت إنها قادمة
انتماء آخر لمرحلة متقدمة
الاختيار
احتضار زمن الوداعة
تداعيات موقف احتضر
أحرف من رصيد الذاكرة
لعبة الأيام
الاكتشاف
إبحار في ذاكرة إنسان
ترديدات
الدوار
مقاطع من مرحلة العدم
الخوف يموت قتلا
الغريب
الصمت حجارة تفتق
حنان والساعة الثامنة
أحاديث تحتفل فجأة
الارتطام بوجه النافذة
الطيف
المحاضر
العزاء
يوم آخر للحزن

صدر للكاتب

1) البحث عن ابتسامة

2) حكاية حب ساذجة

3) مساء يوم في آذار

4) انتظار الرحلة الملغاة

5) الزهور الصفراء

6) قالت أنها قادمة

7) الغـــريب

8) الانحدار

9) الرجل الذي مات وهو ينتظر

10) الطيـــب

11) الحملة

12) الغياب

13) المحطة الأخيرة

To PDF: www.al-mostafa.com